

الفلاحة والبوعمية في الأدب القديم والحديث

محمد لطفي جمعة

مراجعة

رابع لطفي جمعة

١٩٩٩ / ١٩٩٨

عالم الكتب

٢٨ شارع عبد الخالق لوروت - القاهرة ت: ٢٩٢٦٤٠١

الفلاحة والبيوتية
ف
الأطب القدير والأطير

محمد لطفى جمعة

مراجعة
رابع لطفى جمعة

١٩٩٨ - ١٩٩٩

تقديم للأستاذ أحمد حسين الطماوى

كتاب الفلاكة والبوهيمية فى الأدب القديم والحديث لمحمد لطفى جمعه دراسة حافلة بالمعلومات والآراء فى قضية قديمة جديدة، مدارها حول الأدباء الذين طغى عليهم الفقر ، وطوح بهم البؤس بعيداً عن سرور الحياة ، وأشاع فى نفوسهم قلقاً وكماً وقتامة .

ولم يشرح لطفى جمعه المعنى اللغوى لكلمة «فلاكة» . وقد نظرنا فى «لسان العرب» مادة «فلك» فألفينا : «فلك الرجل فى الأمر وأفلك لج» . ولج قد تأتى بمعنى الابتلاء . قال ابن الأعرابى : ولو عراك لج بى منيتها . وفسره فقال : لج بى أى ابتلى بى . ولج الليل بضم اللام شدة ظلمته وسواده . ويقول الزمخشري فى أساس البلاغة «لج» تطلق مجازاً على من «لج به الهم والنزاع» ، ويؤخذ من هذا أن المفلوك هو الذى رمى به الهم والفقر والبلاء فى لجج البحر الأعظم وتموج مع أمواجه ، وتقلب فى دوامته ، والمقصود دوامة الحياة .

وكلمة «فلك» استخدمت قديماً فى مجال الفقر ، وقد أشار أحمد أمين فى كتابه «ظهر الإسلام» الى كتاب قديم عنوانه «الفلاكة والمفلوكون» وضعه الشهاب الدلجى يتناول الفقر والفقراء من الأدباء،

وكتاب «الفلاكة والبوهيمية» يسير على دربه، إذ يعرض لمن نسميهم أدركتهم حرفة الأدب .

وفى هذا المبحث يجول لطفى جمعه بفكره وينقل طرفه من الماضى إلى الحاضر ، ومن الشرق إلى الغرب حتى يلم بحقائق موضوعه قبل أن يطلق أحكامه .

وتسعه ثقافته المتنوعة فى تقديم نماذج من هؤلاء الأدباء الذين قهرهم الفقر، وسدت فى وجوههم سبل الفرج ، وتصعلكوا فى دروب الحياة من أمثال : أبى عثمان شيخ الإمام مالك الذى لم يجد قوتا ولا ثيابا ولم ينتفع بعلمه وعقله ، وأبى الطيب الطبرى الذى كان يلبس مع أخيه قميصا واحدا وعمامة واحدة إذا لبسهما أحدهما مكث الآخر فى البيت . ومن المحدثين على الليثى قبل تلؤلؤه فى عصر إسماعيل وعبدالله النديم وإمام العبد ، وحافظ إبراهيم قبل عمله بدار الكتب ، ومن الأوربيين جان جاك روسو الذى ألقى بأولاده الخمسة فى ملجأ اليتامى واللقطاء ولم يحاول البحث عنهم طوال حياته . . . وغيرهم .

وإذا كان نصيب هؤلاء فى الأدب والفكر جزلا ، فإن حظهم من الحياة بسيط، وذلك يحتاج الى تفسير وتعليل . ومن هنا لم تكن غاية المؤلف الاسترسال فى سرد تراجم المفلوكين وتقرير حقيقة الفقر عندهم . . . إلخ . أو استقراء ظواهر هذه الحالة فقط ، وإنما كان تعليل الظاهرة هو مجال فكره ليقف على الأسباب المؤدية الى فقر الأدباء .

ويذهب في تحليله إلى أن الشرقيين يعتقدون في تقدير الرزق «الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر» . فهم لا يحاولون تحسين الحالة بالسعى ، ومنهم من يقدم المبدأ على المال ، وبعض الأدباء ضعاف الشخصية ، وبعضهم الآخر يتعالى على الناس ، أو تظهر في كتب نفر منهم رقة الدين والإباحية ، وقد يكون للحياء دوره في بؤس الأديب . فقد انتحروا شاترون بالزنيخ ولم يحاول الاقتراض لحيائه الشديد فمثل هذه الأسباب لها دورها في نفور الناس من الأديب .

ويفطن المؤلف إلى أن بعض هذه الأسباب ليست ثابتة فقد تتغير من عصر إلى عصر . إذ يرى أن القسق والإلحاد وسوء السلوك ترفع من شأن الأديب أحيانا وتجعله يكبر في عيون أناس في عصور تالية . إن جمعه يأخذ في الاعتبار عامل الزمن في تشكيل السلوك وتلقى الأفكار . فغير الزمن تجد آراء وتتغير معتقدات وإنه من الخطأ الحكم على كل فكر جديد بأنه صواب . والأجدى القول إنه يتغير .

ويعرض لطفى جمعه لنماذج أخرى من أدباء استغرقتهم اللذة الشاذة أو تملكهم حب المفاخرة بالعلم ، أو نزل بهم الهزل إلى الهاوية ، وهناك من فرض على صحبه النفاق منه بحسده وشراسة خلقه ومن استذله الحرص ، وهذه المعايير مازالت قائمة . ومثل هذه الشخصيات متفككة وحاملة لعوامل القشل في داخلها ولا يمكن أن تلتئم وتقوى إلا إذا سمت على عيوبها وتخلصت من عوامل

انحطاطها . وهذه النقائص مؤثرة فى مكانة الأديب أثناء حياته مما يساعد على خموله وإهمال أدبه .

ومن خلال هذا العرض المحدود يتضح لنا أن فقر الأدباء مرتبط بالسلوك الإنسانى أو بالطبيعة الانسانية وليس بالأدب والطبيعة الإنسانية لها دخل فى هذه الظاهرة ، ولكنها ليست السبب الوحيد ، فثمة علل أخرى . كما أن الأدب فى ذاته لا يمكن أن ينتج عنه الفقر . وهناك من أثرى من الأدب ، ولكن الآفة أن يعتمد الأديب فى تحصيل قوته على أدبه ، ذلك أن الأدب قد يروج فى بيئة دون بيئة ، وفى فترة دون فترة لطوارئ تطراً . وقد يتقبل الجمهور جنساً أدبياً دون جنس ، والأمر فى هذه الأحوال موكول إلى أنواق وأفهام القراء . وقد يحترف الأدب كثيرون ممن ليست لهم المواهب السامية فيضيع الأصلاء بين الدخلاء ، وحتى ينصف الزمن أصحاب المواهب الأصيلة يكون عذابهم فى الحياة بلغ مداه . وقد يُعرض القراء عن كاتب يكون فكره أكبر من عصره ، ورؤيته أشمل من رؤية غيره ، وحتى تعرف الأجيال الآتية علو فكره يكون قد مات جوعاً .

وبالرغم من وجود هذه المعوقات فإن هناك من أصيبوا بداء التأليف الأدبى ، وهؤلاء ماضون فى طريقهم سواء ألاقوا التقدير المعنوى أو المادى أم لم يلاقوا ، ويظلون فى حركة ناشطة من غير انتظار لغاية . وكل همهم إطراب النفس ، والتعبير عن خلجات

القلب دون أن يعترهم شعور بخيبة الأمل فى الحياة . ولطفى جمعه
كان من هؤلاء ، فإنه ترك مؤلفات مخطوطة ، أكثر مما ترك من
مؤلفات مطبوعة .

وعلى هذا ف للمشكلة أكثر من وجه . والمؤلف لا يلقى بالتبعية
كلها على الأدباء التعساء ، وإنما يرى علا أخرى ، فهو يلوم القراء
الذين شغلتهم حياتهم الشخصية عن أمورهم العقلية و « شربوا على
الجهل وحب الذات » هؤلاء لا يقبلون على كتب الأدب والفن والعلم
والحكمة ، ونظرتهم صحيحة ، فإذا انعدم القارئ أو ندر كسد
الكتاب ، وقديما قيل : « أكسد شئ فى سوقنا الأدب » والأمة
القارئة تساعد فى تطوير فكرها بتشجيع أدبائها على التأليف .

ويشرك لطفى جمعه الأغنياء فى المشكلة ويبين أنهم معزولون
عن الأدباء « أغناهم الفعل عن القول » وهذا ثابت ، فقلما تجد غنيا
يهب لنجدة أديب ، أو يطبع كتابا له على نفقته ، أو يشتري عدداً
كبيراً من نسخ كتاب تشجيعاً له . بل إن بعضهم يقول عن الأدباء :
أضاعوا وقتهم فيما لا يفيد . فهؤلاء يؤمنون بعزلة الوجدان الأدبي
دون اكتراث . ويفطن إلى دور الحكومة فى إنقاذ الأديب من بؤسه
. وهى عل أخرى استئانها من طول مراقبته ومتابعته لظاهرة
الفلاكة ولكن تبقى المشكلة قائمة وهى أن الأديب إذا اعتمد على
الأدب أدركته الحرفة .

وقد أشار لطفى جمعه الى كتب تناولت هذا الموضوع مثل «

مناظر من حياة الـ «ميسية» لهنرى مورجيه الفرنسى . و « فلاكـة
الأدباء الانجليز» لرانسوم وغيرهما ممن عرضوا لأدباء وفنانين
أدركتهم الحرفة ، وهذا يعنى أن المشكلة عالمية .

وأعتقد أن الأديب الذى لم تدركه الحرفة ، فى الغالب ، إما
أنه كان يجيد توثيق العلائق مع الناس ، أو يعرف كيف يرهـب
أصحاب المال بالهجاء اللاذع فيتحاشونه بالعطاء ، أو يتملق
الجمهور بما يناسب أنواقهم ويستثير غرائزهم ، أو أن يحالفه الحظ
وتكثر فى حياته المصادفات السعيدة ، أو أن يكون غنيا من غير
الأدب ، أو لأسباب أخرى .

وربما يكون لقوة الأدب الناجم عن الموهبة دخل فى الثراء
وذلك فى أحوال ، ولكن هذا ليس على الإطلاق ، ولا يمكن القول إن
جان جاك روسو الفرنسى وهربرت سبنسر الانجليزى وأباحيان
التوحيدى العربى ، كانوا من ضعاف المفكرين ، لقد عاشوا جميعا
تحت تأثير الفقر مع عبقرية أدبهم وفكرهم ، والأخير منهم وهو أبو
حيان كان ينتظر أن تجلب له كتبه الجاه ، وتعد له الرياسة فى
قومه ، فلما حرم ذلك وشعر بقلـة جدواها ، أقدم على حرقها وكان
هذا الفعل لونا من ألوان استشهاد الفكر أو استشهاد مفكر غاله
الفقر .

وتعد هذه الدراسة بحثا اجتماعيا إذ أن الفقر من مباحث
علم الاجتماع لذلك فإن جمعه يعرض لأدباء تحدوا الظروف التى

فرضت سيطرتها عليهم وحاولوا فك الحصار المضروب حولهم
باتخاذ خطوات عملية تنتشط فيها القوى ، ويتجدد فيها نسيج النفس
، وقد تمثلت هذه الخطوات فى الترحال والأسفار إلى أقطار أخرى،
علمهم يظفرون بالرزق والرفاه ويضرب أمثلة بالشدياق وبعض شعراء
المهجر ، ولكن إذا صح ما ذكره عن هؤلاء ، فليس كل من ارتحل عن
وطنه حقق غنما ، فهناك من عاش فى وطنه بائسا ، وأقام فى غربته
بائسا لأنه منكود لم يبتسم له الحظ مثل حافظ إبراهيم الذى رحل
إلى السودان فلم يصب من أسفاره وتعبه شيئا . وهناك آخرون لم
ينتقلوا من أقطارهم حبا فى وطنهم ، فلم تهبهم الحياة الرخاء .

وغاية ما يرمى إليه المؤلف هو أن يتحكم الأديب فى سلوكه
وينأى عن المثبطات وينظم علاقات مع واقع جديد ويكيف شعوره
معه لتغيير الظروف التى يعيش فيها .

كذلك يعرض لطفى جمعه للأحوال الاجتماعية لبول فرلين
الذى طلق امرأته وأطلق الرصاص على ريمبي وسجن ، وأوسكار
وايلد الذى قاطعه الناشرون بعد أن ثبت عليه الشذوذ الجنسى بحكم
المحكمة وغير هذا وذاك من أحوال سلوكية واجتماعية لها دخل فى
فلاكة الأدباء .

وإذا كان العيش من الأدب ليس من الأمور القابلة للتحقيق
على الدوام ومع كل الأدباء مهما سما أدبهم ، فإن محمد لطفى
جمعه ناقش قضايا مختلفة متعلقة بظاهرة الفلاكة ، ولاعم فى درسه

بين التاريخ الأدبي والاجتماعى والسلوك الإنسانى لأن بينها جميعا
نغمة داخلية ، وذلك بغرض شرح ظروف وأحوال فقر الأدباء
وتفسيره وتعليقه ومحاولة علاجه ، وقد دافع بحرارة عن استقلال
الأديب وكيانه ، وأكد على علوه فى المجتمع ، ورأى أن كنزه الأدبى
أرفع من المال والجاه .

القاهرة فى ٣ مارس ١٩٩٨

أحمد حسين الطماوى

(١)

أدباء وشعراء قدامى ومحدثون

كان المرحوم محمد حافظ إبراهيم أول من ذكر الفلاكة في الأدب العربي الحديث في الجزء الأول من ديوانه الذي نشره في العام الأول من القرن العشرين ، ومن شعره ذي الدلالة على حالته النفسية قوله في مواطن شتى من ديوانه « مطبعة التمدن للمرحوم إبراهيم رمى بك سنة ١٩٠١ - ١٣١٩ » قوله في قصيدة بعث بها من السودان الى المرحوم السيد محمد بك بيرم سليل الأسرة التونسية الشهيرة التي نزع عميدها من تونس في أواخر القرن التاسع عشر فرارا من مظالم الاستعمار (ص ٥٤ ، ٥٥ من المطبوعة المذكورة) :

ولكنسى مقيدة رحالى

بقيد العدم فى وادى الهموم

نزحت من الديار أروم رزقى

وأضرب فى المهامه والتخوم

وما أنا بين أنياب المنايا

تحت براثن الخطب الجسيم

وقال يصف حاله ص ٦٤ :

تسألت عنى نجوم الدجى

لما رأتنى دانى المصرع

قالت نرى فى الأرض ذا لوعة

قد بات بين اليأس والمطمع

يئن كالمفتود أو كالذى

أصابه سهم ولم يُنزع

وقال ص ٦٩ :

لكننى غير مجدود وما فتئت

يد المقادير تقصينى عن الأرب

وقد غدت وأمالى مطرحة

وفى أمورى ما للضب فى الذنب

وقال ص ٧٣ :

سعى الى أن كدت أنتعل الدما

وعدت وما أعقبت إلا التندما

فهبي رياح الموت نكباء واطفئي

سراج حياتي قبل أن يتحطما

وقال ص ٩٠ :

أصاب رفاقي القَدْحُ المعلى

وصادف سهمي القدح المنيعا

فلو ساق القضاء إلى نفعنا

لقام أخوه معترضا شحيحا

وقال ص ١٢٨ :

طريد دهر جائر الأحكام

مشئت الشمل على الدوام

مالزم لهم والسقام

وقال ص ١٦٢ :

يا لقومي إنني رجل

أفنت الأيام مصطبرى

وقال :

فيه شخص اليأس عانقني

كحبيب أب من سفر

وفى سنة ١٩٠٣ نشر حافظ القسم الأول من تعريب
«البؤساء» لفكتور هيجو وقال فى تقديمه الى الأستاذ الإمام «وقد
عنيت بتعريبه لما بين عيشى وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب» .
وقال فى وصف الكتاب ص ٣ «وضعه صاحبه وهو بائس
وعربه معربه وهو بائس . فجاء الأصل والتعريب كالحسناء وخيالها
فى المرأة . وضعه نابغة شعراء الغرب وهو فى منفاه وعربه كاتب
هذه الأسطر وهو فى بلواه» .

وما زال المرحوم حافظ يشكو الفلاكة ويشبه نفسه بالمفلوكين
حتى أسعفته الحكومة المصرية بالمنصب والرتبة فى سنة ١٩١٢
فعاش بعدها عشرين عاماً منعماً الى أن توفى فى يوليو سنة
١٩٣٢ . فكانه قضى عشرين عاماً شاباً ومتعلماً ومثلها ساعياً فى
الرزق مسالماً ومحارباً مهاجراً الى حدود الأربعين ثم محا الله آية
شقائه وأثبتته فى لوح الأقدار ميسراً فأدركته منيته وهو فى بحبوحة
من العيش، ولم تكن فاقتة وإملاقه وعسره معنى من المعانى بل كانت
حقائق مادية - قال الأستاذ عبد العزيز الثعالبى رأيت حافظ
إبراهيم لأول مرة سنة ١٩٠٤ فى بيت أحد الأعيان بخط الصليبة
بجوار القلعة فكان أسود اللون هزيراً دائماً الصمت كأنه يحمل على

كاهليه جبلا ، فحاولت ليلة بطولها من بعد العشاء الى الفجر
أستدرجه فى الحديث فلم ينبس بقوله سوى إنه ضابط بالجيش
وليس له فى مصر صديق ولم يذكر له من خصائص أموره إلا اسمه
وبلده الاسكندرية . وعلم الثعالبى بعد ذلك أن هذه كانت فترة
غمрте التى لم تتجل إلا بعد العقد الأول من القرن العشرين وبعد
تمام الأربعين من سن الشاعر .

كان فقر حافظ حقيقة موجعة فلم يتزوج طوال حياته ولم
يعقب ولم يغادر بيته فى عمارة البابلى إلا عندما نزح الى حلوان
للاستشفاء . ويروى أنه تكسب بالشعر مالا كثيراً ولكنه ضيعه فى
الكرم وأناقة المطعم والمشرب وبرّ ذوى القربى ولم يكن يعاشره فى
بيته سوى والدته التى انتقلت الى رحمة الله عام ١٩٠٦ .
وكانت فى مصر أسطورة تعلل فقر الأذكىاء بقولهم أدركت
فلاناً حرفة الأدب (١) .

كما فسروا خطأ الحديث المنسوب للرسول « ذكاء المرء

(١) حُرْفَةُ الأدب (بضم الحاء وسكون الراء) هى الحرمان وسوء الحظ ، وقد شاعت
عبارة « أدركته حرفة الأدب » فى مقام الحديث عن محارفة الأدباء وما يعترض
حياة بعضهم من ظروف سيئة يقول جحظة البرمكى :
ما أنصفتنى يد الزمان ولا أدركنى غير حرفة الأدب

محسوب عليه » . وضربت الأمثال بنبوغ شوقى وإسماعيل صبرى
والبارودى فعللوا نبوغهم بالغنى ، فقد ولدوا ودرجوا وشبوا فى
جحر السعادة وكان الأدب هواية وتبعاً لمصادر أرزاقهم الواسعة من
المناصب والأموال الموروثة ، وقولوا بشعراء نوابغ قعد بهم الدهر
أمثال أحمد محرم وإمام العبد و خليل مطران والكاظمى والمويلحى
والدا ولداً وغيرهم . وكان فى مصر قبل هذا الجيل أدباء
ميسورون منهم خلف الغبارى ، كان يكتب شعره فى برود موشاة
بالذهب ومموهة بالفضة ، كما كان بينهم شاعر اسمه ابن عروس
عاش فى أواخر القرن الثانى عشر كان لصاً يقطع الطريق ويسطو
على الأمنين وبلغت حياته فى الإجرام ثلاثين عاماً وبلغت ثروته مبلغاً
جسيماً مما جمعه بالسلب والنهب وما جباه من الضرائب والأتاوات،
وفى الحلقة السادسة من عمره كانت نفسه قد بشمت فأقلع عن
الغواية وبدأ بحطام العاجلة فقسمه بين الفقراء ولم يبق لنفسه شيئاً
منه وهام على وجهه فى البلاد متصوفاً ناسكاً يدعو الى النضيلة
ويأمر بالعرف وينهى عن الرذيلة والمنكر ويحض على التقوى ومكارم
الأخلاق وبقي على هذه الحال أكثر من عشرين سنة الى أن مات
وقد أربى على الثمانين .

وكان محمد عثمان جلال (١٨٢٨) من الأدباء المجدودين
ووصل فى المناصب الى قضاء المحاكم المختلطة ولكنه مازال يشكو
الزمان :

الخير على الناس عم وفاض
وكل إنسان استكفى
وبس أنا يا عم رياض
وقعت من خرق القفة

ومن زعماء الأدب والسياسة المرحوم السيد عبد الله نديم
ترجم له المرحوم أحمد تيمور باشا « وهو من مجدودى الأدباء » فى
كتاب تراجم أعيان القرن الثالث عشر « طبع مصر سنة ١٩٤٠ »
فقال كان أبوه فى مبتدأ أمره نجاراً للسفن بدار الصناعة ثم خبازاً
فولد عبد الله فى قلة من العيش فتعلم فن الإشارات البرقية وغضب
عليه خليل أغا فأمر بضربه وفتح له أحد الأعيان حانوتاً للخردوات
فبدد المكسب ورأس المال وجعل يجوب البلاد واقفاً على أكابرها ثم
صار وكيلاً للتونجى بك على ضياعه ثم مؤلفاً مسرحياً « الوطن
وطالع التوفيق » وممثلاً وصحفيًا ثم سياسياً ثائراً وخطيباً للثورة
العراقية ثم فاراً من وجه العدالة « على حد التعبير الحديث »

فمحكوما عليه بالنفى طول حياته من القطر المصرى ، فصار طريدا شريدا نحواً من عشر سنين الى أن قبض عليه سنة ١٨٩٢ فى قرية الجميزة « ٢٩ صفر سنة ١٣٠٩ هـ » ، فسجن ثم أفرج عنه ثم نفى الى فلسطين ثم عاد الى وطنه ونفى مرة ثانية فقبلته حكومة تركيا وعينته فى وظيفة بديوان المعارف بدار السلطنة العثمانية فأمضى بقية عمره شريداً حتى لقي حمامه فى جمادى سنة ١٣١٤ هـ ، وضاعت مؤلفاته ودواوينه وتاجرت أرملته فهيمة بنت مصطفى منى الحلاوية باسمه باحثة عن زوج بعد أن نغصت حياته فى البكاتوش وشباس الشهداء ، وكانت هذه المرأة تسمى إليه وتغاضبه حتى ضاق ذرعه منها وهم بإظهار نفسه للحكومة ثم تراجع وأصلح أمره معها ، ولكمته مرة على فمه فكادت تسقط ثنيتيه من الفك الأعلى فربطهما بخيط من حرير « ص ٢٣ تيمور باشا » . ومن تأمل بعين الاتعاظ فى تقلب الأحوال بالنديم وماذاقه من علقم الزمان ومره وقاساه مدة الاختفاء على يد خضراء الدمن « فهيمة منى » ثم النفى والمرض حتى مات غريباً طريداً ، حق له العجب وعرف كيف يعبث الزمان بأهل الفضل والأدب .

ومن أدباء القرن التاسع عشر محمد إمام العبد وتوفى فى

أوائل العقد الثانى من القرن الحالى ، وهو وحيد أسودين جلبا الى مصر وبيعا فيها لبعض البيوتات الكبيرة وجمعتهما الأقدار برابطة الزواج وكان يرى أن حياته على الأسلوب الذى تجرى عليه لا تكفل نظام الأسرة ونظر فى ذلك الى بؤسه وحاجته فأثر ألا يشرك معه زوجة فى هذه الحياة القلقة التى لا تستقر على حال (ص ١٥٦ أدب الشعب المظلوم والصباحى طبع مصر ١٩٣٦) وروى المرحوم صالح مجدى القاضى ابن المرحوم مجدى باشا أن محمد إمام العبد أدركته الفاقة فدخل داره فى شارع الخليج ولم يخرج منه حتى وإفاه الموت .

وكان المرحوم الشيخ محمد التجار من أكبر أدباء القرن الماضى وكان عالماً أزهرياً وكاتباً بليغاً وشاعراً مبتكراً جم الخواطر متين النظم فى الشعر والزجل، الى سرعة الخاطر وحضور البديهة حتى صار فنه مثابة المتأدبين ومجلسه كعبة الأدباء ، وكان قليل المال ولم يدخر شيئاً ولم يقد شيئاً بأدبه سوى ما أنفقه على مجلته «الأرغول» وعلى مجالس الأدباء فى المقاهى البلدية والإفرنجية .

ومن الشعراء الذين نعموا بالمال والمنصب وشقوا بالحياة وأحزانها المرحوم حفى ناصف وكان قاضياً وأديباً ومؤرخاً وخبيراً

بتاريخ اللغة وأسرارها فى كل عصورها ، وأشرف فى آخر أيامه على طبع المصحف الشريف المطبوعة المثلى ورمته الأقدار قبيل الوفاة بقصف غصن بنته المحبوبة المرحومة ملك ناصف « باحثة البادية » وسجن أولاده جلال الدين ومجد الدين وعصام الدين فى شؤون سياسية إبان الثورة المصرية ولكنه كان كالجبل الراسخ إيماناً وصبراً .

واشتغل الشيخ حسن الطويل فى شبابه فى أعمال السخرة بالسكة الحديدية وما أشبهها من الأعمال الشاقة ، وألحقه سعيد باشا بفرقة النماردة (جمع نمرود) وخرج من غير علم أبيه من قريته (منية شهاله بالمنوفية) وهو لا يملك شيئاً فمشى على قدميه يبيت فى كل بلدة تصادفه حتى وصل الى القاهرة ودخلها من جهة باب الحديد فاشترى بما معه شيئاً أكله .

وكان الشيخ على الليثى مقيماً بمسجد الإمام الليثى وينزل الى الأزهر لطلب العلم ويعود للمبيت بالمسجد وكان كريماً على فقره، ولما تولى سعيد باشا على مصر أمر ضابط مصر عبده باشا بجمع من يأكلون أموال الناس بمعرفة الزايرجة والأوقاق (الباطل والخزعبلات) ونفيهم إلى السودان ، فسيق الشيخ على الليثى معهم

لما علق به من هذه التهمة ، فبقى فى السودان الى أن عفى عنه وعاد لمصر ، ولما تولى إسماعيل تلالاً نجم الليثى وبدأ سعيه .

وكان الشيخ أحمد مفتاح العالم الشاعر الناثر (١٢٧٤هـ) من أقل الأدباء حظاً ، ففى أثناء مجاورته كان مسافراً من بلده الى القاهرة فى سفينة كبيرة أيام زيادة النيل ونزل يغتسل على سكران السفينة (الدفة) مع جماعة فانحدر مع الماء فى وسط النيل فمازال سابحاً حتى كلت سواعده وكاد يفرق ، وسافر مرة أخرى فى سفينة فتشاحن مع ربانها تشاحناً أدى الى إخراجها منها فخرج الى الرقة (إقليم بنى سويف) وهو لا يملك شروى نقيير سوى كتاب مخطوط رهنه فى أجرة القطار لبلده ، وله نوادر كثيرة من المشى على القدمين مسافات بعيدة والمبيت على الطوى فى كل غدوة وروحة بين القاهرة وبلده ، ثم اشتغل بالتدريس والصحافة وكان غريب الأطوار سريع الغضب له شذوذ فى أخلاقه ، له هزة وتبخر فى مشيته لمرض كان أصابه فى ظهره ورجله وتوفى وحيداً فى داره بمصر الجديدة والأبواب مغلقة عليه وبقى أياماً لا يعلم به أحد حتى كسروا عليه الباب فآلفوه مائلاً فى سريريه وجزء من كتاب الأغاني ملقى بجانبه (٢٨ محرم ١٣٢٩) ، وقرر الطبيب أنه مضى على وفاته ثلاثة عشر يوماً ، وكانت له وقت وفاته بنتان متزوجتان .

وإن نحن حاولنا أن نحصى الأدباء والعلماء الذين صادفتهم
متاعب الحياة وقضت الأفضية على أمالهم فى السعادة فلن
نستطيع الى ذلك سبيلا وكتب الأقدمين حافلة بتراجمهم ، ولكن
أردنا تقديم نماذج وأمثلة من الأنداد والمتعاصرين فى هذا القرن ،
ومن هؤلاء من أدركناهم وعاشرناهم واستقرأنا تراجمهم وخواطرهم
وعرفنا ثلاثة شبان شعراء وكتاب انتحروا أولهم محمد راضى
(١٩١٢) وأحمد العاصى (١٩٣٠) وإسماعيل أدهم (١٩٤٠) . وقد
قرأنا لهذا الأخير أدباً رائعاً وعلماً وفناً ورأيناه فى مدينة
الإسكندرية (صيف ١٩٣٩) وكان شاباً ضئيل الجسم ضامراً
مريضاً لا يدل مظهره وحديثه ومجلسه على شىء من أدبه وذكائه
ولكن كان بلا ريب موهوباً ولا مسناً عداوة أقرانه له وحسدهم إياه
واستهانتهم بشأنه لتمييزه بلا ريب عليهم مع فقره وعجزه عن
مجاراتهم فى سبل الحياة المادية وسمعنا على الخصوص غيبته
مرغمين من رجل متعالم يدعى الأدب نظماً ونثراً ويحقد على أدهم
حقداً أسود وينقر الناس من لقائه مع أنه من قبل عام واحد كان
يشيد بعلمه وفضله وأدبه ويخلع عليه الألقاب ويقدمه للجمهور كما
يقدم أعضاء المجامع العلمية فى أوروبا . وكان أدهم كذلك يخدم

شهرة هذا الرجل بالحق أو بغيره للصدقة التي كانت بينهما ، فلما أغلق الأديب المتعالم حانوت تجارته الأدبية حمل على صاحبه بالأمس حملة منكرة وقيل فى أسباب انتحاره كثير ، ولكن معظمها الفقر والمرض وقيل إنه علل قتل نفسه بالتبرم بالحياة والضجر وطلب الى ذوى الحل والعقد أن يحرقوا جثته ويذروا رمادها فى الريح والبحر إلخ . ورثاه كاتبان أو ثلاثة فى الصحف والمجلات وكان بعضهم يعجب بذكائه وزكائه واقتداره وصبره على العمل ، ولا نظن أنه جاوز العقد الثالث ولكنه كان ناضجاً قبل الأوان وقد أثنى على كتاب وشعراء وحلل أدبهم على الطريقة الأوروبية الحديثة ولم يعن أحدهم به فى حياته أو بعد مماته .

ومن أجداد هؤلاء الأدباء والعلماء والنابغين فى الشقاء الذين نبحت فى تخفيفه ومحاربتة للقضاء عليه ، القاضى عبد الوهاب البغدادي ، ثبت به بغداد على عادة البلاد بذوى فضلها فخرج منها وشيعه أكابرها وحزنوا لفراقه ، فقال لهم لو وجدت بين ظهرانكم رغيقين فى كل غداة ماعدلت بلدكم بلوغ أمنية ، ثم قصد الى مصر (٤٢٢هـ) فمات فى أول وصوله من أكلة اشتهاها وقال وهو يتقلب ونفسه تتصعد « لا إله إلا الله لما عشنا متنا ! » وهى كلمة تحمل فى طياتها حكمة كاملة .

ومات ابن مالك الأندلسى شيخ النحاة فى عصره وإمام اللغة والأدب سنة ٦٧٢ هـ وخرج من الدنيا ولم يتعلق بأعراضها ، ولا قرطس سهمه فى أغراضها ، وضاعت البصرة بالبضر بن شميل الشاعر صاحب غريب الحديث والشعر فخرج لوداعه ٣٠٠٠ محدث ولغوى وعروضى ومؤرخ فقال لهم « يا أهل البصرة لو وجدت كيلجة باقلى مافارقتكم » ، فلم يجد فيهم من يتكلف ذلك عنه أو يتعهده وحنانهم كحنان الأوز عطف ولا ثدى (توفى ٢٠٤ هـ) وانتحر الأخفش الصغير لفقره بأن أكل السلجم النوى فقبض على فؤاده فمات فجأة (٣١٥ هـ) .

وقضى شهاب الدين التلعفرى نحبه وكان من أبرع الأدباء والشعراء ، وهو يستجدى ويقامر (سنة ٦٧٥ هـ) حتى بقى فى أتون من الفاقة .

وكان الترمذى يعيش سبعة عشر يوما على اللفت (٢٩٥ هـ) ولم يكن لفقهاء الشافعية رأس منه فى زمنه .
وبقى أبو العباس الأبيوردى الخطيب الفقيه سنين لا يقدر على شراء جبة يلبسها فى الشتاء ويعطل ذلك بقوله « بى علة تمنعنى لبس المحشو » ومات سنة ٤٢٥ هـ .

وعاش الشنترينى الشاعر الناثر الأندلسى قليل الحظ أسود
حالا من الليل وأكثرهم انفرادا من سهيل وشبه نفسه بالإبرة تكسو
العراة وجسمها عريان ومات سنة ٥١٧هـ .

ولم يكن عجز عباس الأبيوردى عن شراء جبة حادثاً مفرداً
فى تاريخ الأدباء ، فقد قال بعده حافظ إبراهيم بثمانية قرون (ص
١١٦ ، الجزء الأول من الديوان ، طبع مصر سنة ١٩٠١) :

صحبتنى قبل اصطحابك دهرا بذلة فى تلون الحرياء
نسبوها لطيلسان ابن حرب نسبة لم تكن بذات افتراء
كنت فيها إذا طرقت أناسا أنكرونى كطارق من وباء
كسف الدهر لونها واستعارت لون وجه الكذوب عند اللقاء
وعطف على أخلاق معاصريه من بنى وطنه فقال :

إن قومى تروقهـم جدّة الثوب ب ولا يعشقون غير الرواء
قيمة المرء عندهم بين ثوب باهر لونه وبين حذاء

(٢) من أسباب الفلاكة

وبعض هؤلاء العلماء والأدباء في الشرق يعتقدون بتقدير الرزق وهم قانعون بتقسيم المال حسب القرآن الكريم « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقبض » ففسروه بالرضى والصبر وعقم السعى لتحسين الحال وكانت العقائد الدينية متمكنة من نفوسهم . فمن هؤلاء الأدباء الذين عاشوا على الكفاف الخليل بن أحمد إمام النحو وواضع علم العروض وأستاذ سيبويه ، كان يعيش في البصرة العيش الخشن الضيق وهو يسكن خصاً من الأخصاص لا يقدر على فلسين وأصحابه يكتسبون بعلمه الأموال (توفى ١٧٠هـ) وكان يقول :

الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه

ولا يزيدك فيه حول محتال

وقد يكون أحدهم عاقلاً عالماً مدبراً حصيناً في كل شيء إلا في تدبير ماله ، فقد كان أبو الطيب الطبري شيخ الشافعية في القرن الخامس صحيح العقل والفهم والأعضاء يفتى ويقضى ويشغل ، ومع ذلك لم يكن له ولأخيه سوى عمامة واحدة وقميص

واحد إذا لبسهما هذا جلس الآخر فى البيت . فقال القاضى أبو
الطيب :

قوم إذا غسلوا ثياب جمالهم

لبسوا البيوت الى فراغ الغاسل

انظر الى قوله « لبسوا البيوت » واحزن معى على ضياع ذلك

الذكاء المفرط حيال ذراعين من القماش وآخر من الشاش ! .

وكان فى مصر عالمان جليلان تخرجا من الأزهر واشتركا فى

جبة واحدة ولكن أدركتهما رحمة الله بعد ذلك بثلاثين عاما أحدهما

المرحوم أحمد سمير الأديب الشاعر المشهور (توفى ١٩٠٦) .

وكان أبو عثمان أستاذ مالك بن أنس لا يجد القوت ولا الثياب،

سئل كيف حظى مالك بك وأنت لم تحظ بنفسك فلم تنتفع بعلمك

وعقلك وحياتك ؟

فأجاب إن مثقالا من دولة خير من حمل علم (توفى ١٣٦هـ)

وهو يعنى بالدولة الجاه والحظ العالى .

وبعضهم يقدم المذهب والمبدأ والخطبة الشريفة على المال ، فقد

رد المازنى إمام عصره فى النحو والأدب مائة دينار لقاء درس يلقيه

على بعض الناس فعاتبه المبرد صاحب الكامل بقوله « أترد هذه

المنفعة مع فاقتك وشدة إضاقتك ؟ فقال غيرتى على آيات القرآن لا
أمكن منها فلاناً ، ووصل الى يده ألف دينار فأسرع الى إنفاقها
وقال معتذراً إن الفاقة الدائمة يلزمها حوائج مجتمعة ومصارف
مؤخرة لا تفي بها الألف ولا ما فوقها والدنانير إنما هي دنانير بغداد
وهي دراهم في الحقيقة (توفى ٦٤٩هـ) .

وهذه النبذة تكشف لنا عن جوانب الحقيقة ، فقد صدق في
أنه يضمن بفكرة وهي احترام القرآن ولو كان في صيانتها حرمان
فهو يضحى بالمال في سبيل المبدأ سواء أكان صواباً أو خطأ وإذا
ترى صاحب الكامل يلومه على تشدده ، فإن آيات القرآن معروضة
لكل قارئ وسامع - ثم تراه يستهين بألف دينار ويعلل استهائته
بأن العبرة والفائدة في انتظام الرزق بوروده مياومة كأجر العامل أو
مسابقة كالبناء والمعمار أو مشاهرة كالموظف أو مساناة كصاحب
الزرع . أما الذي لا يرد رزقه إلا مصادفة فقد يتراكم عليه من الدين
والمطالب ما يجعل المال الوارد في يده قليل الاستقرار سريع الزوال،
ولذا ترى الموظفين وأصحاب المناصب أسعد حالاً لربط رزقهم في
أوقات محددة ، فتكالب الناس على تلك الموارد المنتظمة وإن كانت
محددة ، في حين أن البعض يفضل رزق المصادفة لما فيه من معنى

الاتكال وترقب العناية الإلهية التي لاتقصر أبداً . فهذا العالم
النحوى (المازنى) دلنا على أن حالة الاقتصاد فى القديم هى نفسها
التي نراها الآن ثم إنه يصف دنانير بغداد بأنها دراهم فى الحقيقة،
وهذا مانشاهده فى العواصم الكبيرة فى عصرنا ، فإن الجنيه إذا
استبدلت به فضة سارع الى النفاد حتى شبهوه بالعصفور لطيرانه
وقلة قيمته حيال مايشترى به من الكماليات وحيال كثرة المطالب
ووفرة مايعرض فى الأسواق والناس فى أشد الحاجة اليه .
وفى قصة بيجماليون من عمل جورج برنارد شو على لسان
دوليتل الزبال للغنى :

أنا أكل كما تأكل وربما كانت شهية الطعام عندى أقوى ،
ومن المؤكد أننى أشرب أكثر مما تشرب (يقصد الى الخمر لأنهم
لايشربون الماء فى انجلترا) .

ولكن ليست غايتنا تقرير حقيقة الفقر عند الأدباء ولكن تحليل
هذه الحالة ، وهى تستبين بالحوادث الفردية والنظر فى تراجمهم .
وأول من بحث من الفرنجة فى هذا فيكتور هيجو فى كتاب
البؤساء ، فكشف عن كثير من فضائلهم ، وكان فى عصره هنرى
مورجيه فى كتاب « مناظر من حياة البوهيمية » ولكل كاتب منهما

منحى نحاه فنظر هيجو فى العوز الاجتماعى الذى سببه الظلم
ونظم الحكم وتحاييل رجال الدين والسلطة لإذلال الضعفاء ، أما
مورجيه فقد وصف حياة المصورين والأدباء والشعراء فى مستهل
أعمارهم كما فعل دى مورييه فى قصة تريلى الشهيرة .

وكان جان جاك روسو طول حياته يأكل من كسب يده ينسخ
ألواح الموسيقى وقضى ربحاً من الزمن متنقلاً فى بيوت الأغنياء
وأحضان النساء المرزوقات من كل الطبقات حتى عقد زواجه على
خادمة ورزق منها خمسة أولاد فألقى بهم فى مهد اليتامى وملجأ
اللقطاء خشية الإملاق (اعترافاته المطبوعة) ولم يحاول البحث عنهم
طول حياته ، ومع هذا وذاك فقد أثرى الناشرون والطابعون من كتبه
وأفاد بها ألوف المفكرين ورجال العلم وأوجد مبادئ الثورة
الفرنسية ولم يعلم عنه أنه ادخر مالاً أو نشباً أو استمتع براحة
القلب والفكر ، وانتهزت زوجته الحقيبة فرصة موته وتزوجت من
سايس خيول وعاشرته فى الإصطبل بعد معاشرة الفيلسوف
العظيم، وتاريخ حياته منذ فراره من بيت والده فى جنيف الى أن
شاخ وألف كتاب الاعتراف مبسوط خير بسط بصراحة مزعجة
وحرية تذهل الفكر فى ذلك الكتاب .

وكان أبو سعيد السيرافى شارح كتاب سيبويه لا يأكل إلا من
كسب يده ينسخ ويأكل (توفى ٣٦٨هـ) . .

وقد ينشأ قلة الرزق من خلق الأديب أو العالم نفسه كما وقع
للقاضى نجم الدين ، فقد كان متهوساً بالحكمة يقول عن نفسه أنا
حكيم الزمان فمقتوه ، كما كان الأنماطى الشاعر الناثر الراوية
كثير الدعابة مع الشبان مما أسقط هيئته (ت ٦١٩هـ) كما كان بدر
الدين بن مالك النحوى الأديب العالم بالمنطق والعروض مبتلى
بمعاشرة من لا تليق معاشرته فنبذه الفضلاء من أهل طبقته ، ولكن
هذا لا يمنع أن غير هؤلاء الثلاثة أصيبوا بالفقر دون أن يصابوا
بعيب خلقى كالهوس بالحكمة أو مداعبة الشبان ومعاشرة الطبقات
النازلة ، وقد يكون الفقر نتيجة اتهام صاحبه العالم أو الأديب
بالخمر والفسق ورقة الدين والزندقة . وقد انقلبت هذه المحارم
مكارم فى بعض البلاد فى هذا الزمان تدر على صاحبها النعيم
والمناصب والجاه والأموال وذلك تبعا لتغير الدول والأزمان .

فقد كانت نسبة الأديب إلى إحدى تلك المعايير سبباً فى نفور
الناس منه وتفرقهم عنه حتى يبتلى بقلة الرزق .

أما الآن فكلما ألح الأديب فى إحداها ولا سيما القمار

والمعاقرة والفسوق والإلحاد كان ذلك سبباً في اشتهاره والخوف من علمه ونسبة الذكاء إليه والانتفاع بنقائصه لخير الدولة ، وكلما كان الرجل متمسكاً بالفضائل والعقيدة وصفوه بالانقباض والرجعية والسخف وعدم مجازاة العصر ، وبين الأمرين سبعة قرون فقد انقطع رزق العفيف التلمساني من أدباء القرن السابع الهجرى بسبب اتهامه بالشراب والغزل ونوع من الإباحية لأولاده (ص ١٤٠ ج ٧ دول الاسلام لعلى بن خلف) ، قال قطب الدين رأيت جماعة ينسبون العفيف الى رقة الدين وقلة الحياء فقالوا هذا الشيخ لا يستحي الله من عذابه . وكان الانحراف القليل عن الفضيلة والدين يفضح الرجل ويؤذيه ، أما الآن فقليل من الانحراف عنها ينفعه ويعود عليه بالخير والبركة والمناصب العالية ! .

ولكن النفاق والرياء والتظاهر بالاستمساك بالفضيلة مازالت الى أواخر القرن التاسع عشر سائدة في أوروبا فسقط پول فيرلين وأوسكار وايلد وسجنا لاشتهارهما بالشذوذ الجنسي وعوقبا بالحرمان والفقر ، ونفرت من أوسكار وايلد تبعاً لخطه البورجوازية امرأة كانت من أئمة الدعارة هي سارة برنار ، فقد قاطعته بعد حكم المحكمة عليه بالسجن وفسخت عقودها معه على التأليف

لمسرحها وخشى الطابعون والناشرون والممثلون أن يذكروا اسمه
خوف مقاطعة الجماهير ، ثم استعاد مجده بعد موته واستغلوا أدبه
وكتبه بعد أن توغلوا فى الرذائل والإباحية وعدّوا معاصيه هيئة فى
جنب الجيل الذى خلف جيله (انظر كتب فارمان وجاكسون وماكس
نوردאו فى تاريخ الأدب الغربى فى أواخر القرن ١٩) .

وكان نصيب پول فيرلين أبشع ، فقد طلق امرأته وتردّى فى
أحوال الفاقة وأدمن الشراب وعاشر الأرياء والسوقة على نبوغ
عظيم وقدرة فى الشعر لم يسبق اليها ، ومات فى أحضان معشوقة
لئيمة واستغنى أقاربه وورثته بشعره ونسبت اليه المدرسة الرمزية
فى الأدب الفرنسى ، وسبب نكته علاقته بولد نابغ هو ارتور ريمبو
أزمع على فراقه فأطلق فيرلين عليه الرصاص فى مدينة بروكسيل
فأصاب كفه (١٨٩٠) .

وممن نكبوا بسبب هذه العاهة الخلقية على بن منصور
الحريرى (غير صاحب المقامات) ، كان متصوفا وأقام شرائع
الحقيقة ظاهراً وباطناً وامتدحه شهاب الدين أبو شامة (ت ٦٤٥ هـ)
وكان يعاشر الأحداث ويصحبهم ويقيمون عنده ولم يكن عنده مراقبة
ولا مبالاة ، فحبسوه وسأله أصحابه أن يسأل ويتشفع فلم يفعل ،

فلما أقام فى الحبس أربع سنين ألحوا عليه فى طلب العفو فأمرهم أن يكتبوا عريضة فيها « من الخلق الضعيف الى الراى الشريف ممن هو ذنب كله الى من هو عفو كله سبب هذه المكاتبه الضعف عن المعاتبه أصغر خدم الفقراء على الحريرى » وأراد أصحابه أن تصل الى السلطان ، فما قرأ أحد من رجال الدولة هذه الورقة إلا ورمى بها وأقام بالحبس سبع سنين وتوفى فى أواخر القرن السابع الهجرى .

وكان پول فيرلين وهو فى سجن بروكسيل يكاتب فيكتور هيجو فأجابه بمكتوب عجيب :

شاعرى العزيز استقم كما أمرت هيجو
فلم تفده الشفاعه عند أحد غير مأمور السجن الذى أكرمه
منذ رأى شاعر فرنسا الأكبر يكتب اليه كتاباً .
ومن هؤلاء الأدباء والعلماء من كان شرس الأخلاق ميالاً
للحسد ، لا تدوم له صحبة مع أحد ولا سيما من يرى إقبال الدنيا
عليه ، ومنهم من كان بذىء اللسان كثير الوقيعه فى الناس لمن عرف
ومن لم يعرف ، ومنهم من كان عنده دعابة فى غالب الوقت ، ومنهم
من كان يحتقر الناس ولا يقيم لهم وزناً ومنهم من كان قليل

الاكتراث بالمأكل والملبس ومن اشتهر بالبخل الشديد فلا يتنعم ولا يتزوج ، ومن هؤلاء النوابغ المفلوكين من اشتهر بالبساطة التي تصل الى البلاهة ، فقد كان ابن برى من أهل القرن السادس آية في العلم والأدب واللغة والرواية والدراية ولكن فيه غفلة لا يتكلف في كلامه ولا يتقيد بل يسترسل في حديثه كيفما اتفق ، وكان يدخل الحطب والبيض جميعاً في كفه وعليه الثياب الفاخرة وجاء الى البيت فلم يجده مفتوحاً فرمى بالبيض من النافذة ووضع العنب بين الحطب فتفجر فأساء الناس ظنهم بعقله مع أن البساطة غالبية على كثير من الحكماء ومظهرها الاستهانة بالصغائر ولكن الجمهور لايسامح نقاقاً وجهلاً .

ومن الأدباء من لا يأبه للناس ولا يجعل لهم شأنًا ويظن أنه يتقى شرورهم بالبعد عنهم وهو في ذلك جد مخطيء . ومن هؤلاء أبو جعفر الأديب المصري (٣٣٨هـ) ، كانت له تأليف عجيبة منها إعراب القرآن وتفسير شعر سيبويه وفسر عشرة دواوين وله طبقات الشعراء وشرح الحماسة ولكنه كان ضئيلاً على نفسه مستهترا بالناس وصل البخل عنده درجة مرض التقدير والشح فإذا أهدى إليه أحد الفضلاء عمامة قطعها ثلاث عمائم بخلا وشهاً وحرصاً

وكان يلى شراء حوائجه بنفسه خشية أن يسرقه الخادم ويتحامل على الناس ويتهمهم باضهاده وتعقبه والطمع فى ماله ، ولكن أكثر من ذلك أنه كان يقصد الى الخلوات اقتصاداً للتفقه ، فذهب يوماً الى درج المقياس على شاطئ النيل وأخذ يقطع العروض من الشعر تسلية فسمعه بعض العوام فظن أنه يسحر النيل حتى لايزيد فيضانه بما فيه الكفاية فيقل الزرع وترتفع أسعار الحوائج فدفعه برجله فى النيل ولم يكن يتقن السباحة فلم يوقف له على أثر فذهب ضحية بخله ونفوره من الناس وحب العزلة ، وهذه أدواء نفسية لم يحاول علاجها .

ومن أعلام شعراء الفرنجه الذين قاسوا الفقر بودلير وبوالو وشاترتون وشيلى وكيثس واندرية شينيه وأخبارهم مستفيضة فى تاريخ الأدب الأوربى وزعيمهم بيرون الذى طاف أرجاء العالم شريداً من وطنه وكان أعرج وقيل إنه عشق أخته ، وقبله جولد سميث طاف أوروبا مستجدياً بنايه وقد دلت قصيدته التى مطلعها:

والهفتاه على أكلة فى مطعم الأسد الأحمر !

التى نظمها أثناء صعلكته وفلاكته على نوع العيشة التى عاشها ، فلما أقبلت عليه الدنيا عقب نشر كتابه « مواطن العالم »

عرف كيف يستمتع بثيابه البهيجة الألوان ومسكنه الفخم فى بريك
كورت تشامبرز ، وهذه القصيدة تشبه من وجوه كثيرة أسود
الأشعار التى نظمها عبد الحميد الديب الشاعر القروى فى وصف
حياته ولوعته على الطعام والشراب ومجالس الأحباب والليالى التى
كان ينعم بها عليه الأديب الميسور خليل شيبوب فى بار اللواء .

اما شاترتون فقد انتحر بالزرنىخ فى وكره فى شارع بروك
بهولبون لأنه كان بطبيعته ذا حياء وخجل لا يقويان على الاقتراض
وقد أعجب جونسون بأدبه ووصفه بأنه أقدر شاب على الشعر، وحر
كيف غاص على تلك المعانى فى فتوته وفقره (ص ٢٠٣ فلاكة الأدباء
الإنجليز ، تأليف رانسوم) وقد كافح المسكين ثلاثة أشهر بين أوراقه
ومحابرته وهو يكاد لايعرف الطعام إلا مصادفة وكان أثناء تلك المدة
يكتب لأهله فى قرية هورشام ، إحدى قرى مقاطعة سوث سسكس
(موطن ويلفريد سكاوين بلنت) ليحفظهم من الانشغال عليه مكاتيب
تنبئ بنجاحه وسعادته ، ولأنه خجل أن يقر بفشله وقد قضى فى
آخر أيامه ثلاثة أيام بدون طعام ولا تدفئه وانتحر بعدها بجرعة
الزرنىخ وهو يأبى أن يقترض طعاماً من ربة الدار التى يقطنها
خشية أن يعجز عن السداد ، ولا عثروا على جثته وجدوا بجوارها

سنداً على ناشر شعره بدين يستحقه الشاعر قدره عشرة جنيهاً
وكان هذا القدر من المال كفيلاً بإعاشته أياماً بل أشهراً أو على
الأقل إنقاذه من الفاقة المفاجئة .

وهذا الحادث يدل على لؤم الناشرين والطابعين في أنحاء
العالم حتى في إنجلترا بلد المعاملة المستقيمة واحترام حقوق
التأليف ، فقد يقتضى لؤم التاجر في الكتب أن يعيش الشاعر أو
الكاتب على الماء والهواء وأن ينتج وهو جائع عطشان حتى إذا نال
عمله القبول فلا بد له أن ينتظر الى أن يبيع الناشر ويربح ويضاعف
ربحه بالربا ، وحينئذ يلح الأديب فلا ينال شيئاً وقد ينال نسله
وخلفه أى يطالب ورثته بحقوقه بعد موته ، فإن الطابعين أقصر
الناس ذاكرة في سداد حقوق المؤلفين وأشجع الناس على الجشع
واهتضام الحقوق ولا سيما مع فقراء الأدباء ، وفى كل العالم ولا
سيما في مصر رجال وأسر أثرت وسمنت وتمرغت في التبر
وتمنطقت بالخز والديباج وسكنت القصور واقتنت السيارات من
عرق المؤلفين ودمائهم ، وقد لعبوا على ضعف المؤلفين وخجلهم كما
انتفعوا برغبة هؤلاء في طبع كتبهم . ومات آباء للطابعين الطامعين
والناشرين الشرهين فظن المؤلفون أن الأولاد خير من الوالدين ،

فكان الأولاد أشد لؤماً وخبثاً وطمعاً من والديهم ، ماتت كلاب
جائعة وأخلفت أجراء كلبة مسعورة نهاشة ، سواء فى ذلك المسلمين
والمصريين والمتعلمين والجهلاء وغيرهم من الأجناس الأخرى التى
أغدقتها علينا الأمم الشقيقة (يا لها من مهزلة !!) ، وفى أرباب
الصحف والمجلات أوغاد وأفذاذ فى الاستغلال والفجور فى الطمع
ونسيان الحقوق ، يدفعون رهبة أو رغبة للأجراء وأصحاب الحروف
والحرف حقوقهم ، ويجدع الأنف لا يدفعون للكاتب الذى لولاه ما
صفت حروف ، ولا دارت مطابع ، ولا عجب أن ابتلاهم الله انتقاماً
بييع مجلاتهم وصحفهم مرجوعاً بوزن الورق أرخص مما دفعوا
فيه . فإذا وصل أجر الكاتب أو الشاعر إليه إنما يتلقفه كما لو كان
كنزاً أو « لقية » غير منتظرة فيشيع فيه السرور فيبذر فى إنفاقه ،
حتى يعود أفقر مما كان قبل أن يصل إليه حقه . وقد يكون الطابع
والناشر أكثر وفاء مع الأديب الميسور أو الشاعر الشهير فيقتص
منه أحدهما بحق صاحبه المفلوك المجهول فيتقاضى أجره سلفاً ثم
لا يدفع إليه نثراً ولا شعراً وهكذا كان يصنع أ . ش بك مع خ . ص
أحد كبار المغتالين لحقوق المؤلفين .

وإذن يكون الحياء المفرط والخجل فى المطالبة بالحقوق

والانزواء والخوف من مواجهة شرار الناس وأوغادهم والاستحياء
من الاقتراض عند الضرورة والخوف من عدم السداد والمبالغة في
مايتوهم الأديب أنه حفظ الكرامة من أسباب الفلاكة والفشل وقد
يعقبهما القنوط فالانتحار .

لما قابلت إسماعيل أدهم في الاسكندرية في حفلة تأبين
المرحوم فيليكس فارس الأديب اللبناني سألته إن كان الشاعر
الميسور ل. ط^(١) أعانه بالبر على ما دبجته يراعتة على مدى
عشرين شهراً تقرظاً لشعره وتحليلاً لأدبه وإشادة بذكره وتمجيذاً
لشخصه ، فأجاب سلباً وكان صادقاً بدليل أنني لقيت ذلك الممدوح
المجد وسألته فقال إنه لم يعرف أدهم ولم يجتمع به إلا مرة واحدة
في مقهى بالاسكندرية ، وكان بالطبع هذا التجاهل من مصلحة
لئلا يُتَّهم بالإيعاز إلى الشاب بالكتابة عنه ، ولكن شهد آخرون بما
أيد كلام الممدوح والمادح بعد موته . وكان الممدوح يقول دائماً «لفت
نظري بعض الإخوان الى مايكتبه أدهم في مجلة ق . بعد بضعة
أشهر » . وهذا من الكبرياء والجحود والتعاضم والغرور الذي يدرك

(١) هو خليل مطران الذي كتب عنه أدهم دراسة مستفيضة نشرت بمجلة
المقتطف.

بعض الأدباء فى أخريات أيامهم . مع أن هذا المدح نفسه قبل
توظيفه وتراكم المناصب والمال عن طريق الزلفى والتذلل كان من كبار
المفلوكين وأئمتهم ، وكان يؤلف الكتب ويهديها الى بعض العمد
ومشايخ البلاد الذين لا يعرفون الأدب ، وكان يكتب المقالات الطوال
ويوقعها بأسماء أصحاب الصحف الأميين ، ويتندر بأقوالهم مقلداً
حركاتهم كأن يقول له أحدهم وهو أغناهم « لم لا تكتب بركاكة
تشبه ركاكتى أتظن الناس يصدقون ما تنسبه إلى عندما تغوص على
تلك الألفاظ الغريبة والتعابير العويصة . أنت تريد أن تكشفنى .
اكتب أسخف ما تستطيع وعقبه بتوقيعى فيكون كأحسن ما أكتب » ،
ومع ذلك فقد نسى فلاكته ولم يكثرث لمن رفع له تمثالاً أضخم من
بعال وتركه يتضور جوعاً الى أن مات منتحراً ، ولو كان من بنى
جلده لخلق له منصباً فى المزبلة التى يديرها والتى حشد لها كل
من هب ودب من قومه النوابغ كالأصمع والأقرع وذوى البطون
المنسجة والقرون الملتوية ، وكلهم من المال المعلوم ينتهب .
لقد عجبت والله أن لم يجد ذلك الناقد المنكود الحظ عيباً ولا
هنة ولا سقطلة فى أدب صاحبه وقد مضى عليه أجيال وهو يعيش
ويكتب وينظم ولم يجد له أحد بعض هذه المحاسن التى كانت كالكنز

الدقین المطمور حتی جاء أدهم من دار السلطنة ومقر الخلافة ینبش عنها ویظهر للعمیان والصم من القراء جمالها الفاتن . ولو كانت من أدب القرآن والنبی والصحابه لم یفسح لها صاحب المجلة صدره وصفحاته التي أربت على المئات وكلها متداخلة فی بعضها مرقمة ومنظمة كأنها أجزاء آلة دقيقة بمحركات تمشی على عجل ، ولكن المنية عاجلت المادح المحلل قبل أن يتمها وقبل أن یقیم تمثال القرطجنى على مقعده فیجلسه على قمة جبال الأدب ویسلمه زمام دولة لغة العجم والعرب ! .

ورأیت حب الوطن أو البلدة یقعد بالأدیب عن الارتحال فی سبیل العلی والریح ، ومع ذلك فأهل بلده لا یقدرونه كبعض أدباء دمیاط الذین لا یرحلون عنها إلا فی سبیل الوظیفه الحکومیه ثم یبذلون جهدهم فینقلوا إليها لیکونوا على مقربة من سوق الحسبه وغیط النصاری وشاطیء النيل ولو عاشوا على مضض ، وبعضهم یترك وطنه لئلا یشمت فیہ أعداؤه وحساده فلا یعود إلیهم أبداً إلا إذا غرق فی بحر من الغنى والشهرة وهیهات أن تتحقق أحلامه . وسبب هذا السفر أو الهجرة من الوطن وكثرة تنقلات الأدباء البائسین أنه متى استولت الفلاکه على شخص فی بلد واضطرب فی

أرجائها وتلكع فى طرق معاشها وذاق طبائع أهلها وشهد شهامتهم
وعصبيتهم وارتياحهم الى المحامد وأريحياتهم ، وامتحن قوته فى
التسلق الى مطالبه ، وأبت تلك البلدة عليه إلا نبواً ودفعاً وممانعة
عن المطلوب وملّ وجوهاً لاخير فيها ومجّ سمعه كلاماً لا محصل له
وقد فهم بقلبه فقذفوه بقلوبهم بل ويطواهرهم ، فحينئذ يظن أو يعلم
أن تأتى المصلحة فى ذلك البلد مستحيل أو متعسر والبلد الثانى ظن
الخير قائم به ولا سيما فيمن يتوهم فى نفسه استعداداً فيحب
حينئذ السفر الى البلد الثانى ولو كان نائياً ، والأقيسة العقلية وإن
اقتضت استمرار الفلاكة فى البلد الثانى من جهة أن موجبات
الفلاكة القائمة بالمفلوك مصاحبة له سافراً وإقامة ، وكذلك موجبات
بؤسه القائمة بالناس موجودة فيهم فى كل مكان وبلد ، ولكن ليس
الخبر كالعيان ولا الشر الحاصل المحسوس كالشر المترقب والمنتظر
المعقول ، ولذا نقف على الحكمة فى تمنى الباشسين تغيير الدول
والحكومات وتشوفهم الى ذلك ، فإن الدولة الحاضرة والحكومة
القائمة كالبلد الأول والدولة المتמناة كالبلد الثانى ، وقوة الرجاء
وقيام احتمال الخير المتعلق بالدولة الثانية حكمه حكم البلد الثانى
وقد قال الشاعر :

إذا لم يكن المرء فى دولة امرئاً

نصيب من الدنيا تمنى زوالها

بعكس المحظوظين فى بلد أو فى دولة فإنهم يتمنون بقاءها
ويحصل لهم من الوجل والجزع والوهم عكس ما يحصل للمنكود من
الطرب والفرح والأمل . وقد يصيب المتحول حظاً فى البلد الثانى
ويفرج كربه وقد يبقى على حاله كما حدث لحافظ إبراهيم إمام هذه
الطريقة فى العصر الحديث وهو القائل :

نزحت عن الديار أروم رزقى

وأضرب فى المهامه والتخوم

وما غادرت فى السودان قفراً

ولم أصبغ بتربيته أديمى

وقد أصبحت من سعى وكدحى

على الأرزاق كالثوب الرديم

وقال :

ماذا أصبت من الأسفار والنصب

وطيك العمر بين الوخد والخبب

وددت لو طرحوا بى يوم جنتهم
فى مسبح الحوت أو فى مسرح العطب
لعل مانى لاقى ما أكابده
فودّ تعجيلنا من عالم الشجب
ومانى صاحب مذهب تعجيل الفناء للجنس الإنسانى بقطع
النسل ، وكان يدين بعبادة الدهر :
ويستمر حافظ :
لكننى غير مجدود وما فتئت
يد المقادير تقصينى عن الأرب
وما زال يذكر عدم النفع من التحول والارتحال :
سعت إلى أن كدت أنتعل الدما
وعدت وما أعقبت إلا التندما
سلام على الدنيا سلام مودع
رأى فى ظلام القبر أنساً ومغتما
أضرت به الأولى فهام بأختها
وإن ساعت الأخرى فويلاه منهما!
وهو لم ير فى الفضيلة خيراً له :

فما عصمتني من زمانى فضائلى
ولكن رأيت الموت للحر أعصما .

وهو القائل أيضا :

سعت وكم سعى قبلى أديب
فأب بخيبة بعد اغتراب
وما أعذرت حتى كان نعلى .

دماً ووسادتى وجه التراب
وحتى صيرتنى الشمس عبداً
صبيغاً بعدما دبغت إهابى

وحتى قلّم الإملاق ظفري

وحتى حطم المقدار نابى

ولكن أدباء آخرين صادفوا حظوظاً جيدة بالتحول والارتحال
كأحمد فارس الشدياق وعبد العزيز الثعالبي وعبد الرحمن الكواكبي
ومعظم أدباء سوريا المسيحيين والمسلمين الذين نزحوا الى مصر
 وأمريكا ، ومن موتاهم فرح أنطون و خليل جبران وفيلكس فارس
 والبستاني واليازجي وصروف ونمر . . . إلخ ، ومن الأقدمين أبو
 على القالى أصله من ديار بكر (آخر القرن الثالث الهجرى) من قرية

قلقلية وإليها ينسب مع التخفيف ، درس في الموصل ودخل بغداد
يافعاً وخرج منها شاباً يسبب الضيق الذي شعر به في عاصمة
العباسيين ثم قصد الى قرطبة بالأندلس وأقام بها الى أن توفي سنة
٣٥٦هـ .

وقد جاء في تاريخ الأدب أنه باع كتبه ليققات بها هو وأولاده،
فدعته الحاجة الى بيعها فاشتراها الشريف المرتضى فوجد فيها
أبياتا بخط بائعها صاحب الأمالي :

أنست بها عشرين حولا وبعتها

فقد طال وجدى بعدها وحنينى

وماكان ظنى أننى سأبيعها

ولو خلدتنى فى السجون ديونى

ولكن لضعف وافتقار وصبية

صغار عليهم تستهل جفونى

فقلت ولم أملك سوابق عبرة

مقالة مكوى الفؤاد حزين

وقد تخرج الحاجات يا أم مالك

ودائع من رب بها لضمين

وكثيرون من المعاصرين باعوا كتبهم بتراب المال ، لأن الطباعة أرخصت العلم وكان الدكتور صروف شديد الجزع من بعثرة كتبه بعد وفاته لما رآه فى حياته من بعثرة كتب المتوفين من العلماء وقال لى فى سنة ١٩٢٦ إنه يعتبر كتبه كأصدقائه وأبنائه ويسوؤه أن تعرض فى الأسواق . وهذه حال عالم ميسور فما بالك بمن يرغب على مفارقة كتبه مرغماً وقائناً الله شر هذا ، وقد رأيت كثيرين يبيعون كتبهم لدى أسفارهم وارتحالهم لصعوبة نقلها وغلاء الشحن ولكن إهداعها الى المكاتب العامة أو الأصدقاء أفضل .

(٣) حالة معنوية

كان روسو فيلسوف عصره كما كان فولتير ، وكان الأول متديناً والثانى ملحداً ، والأول ألف تاريخ قسيس سافوا ووضع مخطوط الاعتراف على هيكل كنيسة نوتردام كما فعل محى الدين بن عربى بوضع الفتوحات المكية فوق بناء الكعبة ، ولكن روسو عاش عيشة التشرد والتجول ولم يقتن مالا ، وكان فولتير حازقاً مداهناً يجمال الملحين ويجمال البابا ويلاطف حزب الملك ويتصل

بالتأثرين وييطن الفتنة ويغوى النساء ، وروسو أغوته النساء ،
وادخر فولتير مالا كبيرا وأقام فى قرية على حدود فرنسا ليسهل له
الهرب الى جمهورية جنيف الحرة وبنى له فى قرنى قصراً وأقرض
أهل البلد مالا بغير ربح ليحتفظوا به ، فالأول مفلوك لا جدال
والثانى مجدود موزون ، كأن بالأول على ذكائه وفطنته وسلامة آرائه
خبلاً لا يفارقه وكأن الثانى معجون بماء إبليس ، فهو مثال الدس
واللؤم والغدر والخديعة ، وهذا لاينقص من قدره وكان يستأجر
الغوغاء ليرشقوا بيت روسو بالحجارة وروسو عاجز عن الانتقام لأن
تعقب الشر لم يكن من طبعه بل كانت نفسه موجهة نحو الخير ولم
يخطئ إلا فى التخلص من نسله ، ولعل زوجته الشريرة هى التى
فعلت ذلك بدون علمه أو حرضته عليه ، لقد ولد فى فجر القرن
الثامن عشر وتوفى فى أصيله قبل الثورة الفرنسية بعام ، وكانت
كتبه من أكبر العوامل المؤدية الى تلك الثورة التى دام أثرها من
١٧٨٩ الى ١٩٤٠ أى - وهو أول من وصم بمسبة الإجرام - الرجل
الذى كان أول مبتدع لسنة امتلاك الأرض فى تاريخ العالم وتوخى
فى اعترافه الضخم (حوالى ألف صفحة) إظهار معاييب نفسه
ومحاسبتها وإبداء عوراتها ليكون فيها عبرة لمعتبر وعظة لمزدجر ،

وكان فولتير يخفى عوزاته ويتهمك على الناس ويتملق الملوك والبابا
ولو على حساب الأنبياء وقد ظن اللورد بيرون أن روسو كان مجنوناً
فقال عنه في قصيدة تشايلد هارولد عرف كيف يجعل الجنون جميلاً
وينفض على أضاليل الأقوال والأعمال رونقاً سماوياً كللاء الشعاع
يبهر عيوناً تتلو صفحاته فتسكب عليها دموع الرقة والحنان « وهو
بلا ريب يشير الى نوفيل هيلويز وغيرها ».

لقد كانت حياة روسو حرباً عواناً شتتها على أعداء الحق
والحرية فاثار بغضائهم وقد ثار عليهم ثورة حنق واغتيال عنيقة
هرجاء ، ولكن روسو على كل مواطن ضعفه كان واقفاً على الحقيقة
الازلية وليس بينه وبين الحق حجاب ، أليس هو القائل : « راقنى أن
أضيع توهماً فى الفراغ اللانهائى وأحسست كائن هذا الكون بأسره
يضيق ذرعاً بروحى الطماحة وكأنى أختنق فى فضائه على سعته إذ
كانت روحى أكبر منه وأوسع ، فوددت لو أنى تعديت حدوده فوثبت
فى أعماق اللانهاية ، وكان يخيل إلىّ إذ ذاك أنى لو استطعت
كشف أسرار الطبيعة لكان فرحى بذلك دون ما كان يغشانى من
تلك الحيرة المطرية والغموض اللذيذ والإبهام الممتع الذى سكنت اليه
وأخلدت وملكته زمام نفسه فكان قصاراه إذ ذاك أن أصبح حائراً

دهشاً أيها الخالق الأكبر أيها الخالق الأكبر ! ثم أصمت لا أستطيع
فوق ذلك قولاً ولا فكراً » .

أين من هذا تخطيط فولتير في قصصه وتهكمه السخيف
بالبسطاء في كانديد وتفنته في الحيل لاقتناص الأموال من الكبراء
حتى طرد من بلاط فردريك شرطردة .

لقد دلنا الاستقراء في تاريخ الأدب على أن هذه الحالة
المعنوية تصاحب أفراداً معدودين حتى في الأدب الإنجليزى الحديث
وفى مقدمة هؤلاء العبقريين الذين طلقوا الدنيا وتعشقوا الجمال
والحق فرنسيس تومسون المولود في برستون ١٨٥٩ في بيت والده
الطبيب ، ودرس كأبناء الأعيان في الكليات وحاول الطب في كلية
أوين بمنشستر فلم يفلح وهجر دار والديه عقيب تأنيب أبيه الذى
لدّعه بتعبيره وتعلق بالأدب اليونانى القديم ، فأسار على قدميه الى
لندن في الخامسة والعشرين من عمره واشتغل في دكان أحذية
فاتصل بويلفريد منيل صاحب مجلة « انجلترا المرحة » ، فعرف
قدره وقربه واستمرت صداقتهما الى أن مات تومسون في
مستشفى سنة ١٩٠٧ قبل تمام الخمسين ، ولما عرفه منيل لم يكن له
مأوى ولا يملك ثمن الورق والمداد ، فكان يدون شعره ونثره في

قراطيس قديمة وكراسات بالية يمدده بها صاحب مخزن الأحذية ،
وبعث مقالا عن شيلى الشاعر لمجلة دويلين التى كان عمه رئيس
تحريرها فرفضت نشره ، ولكن منيل ساعده فى نشر ثلاثة أجزاء
من ديوانه وعرفه بلويس هيند صاحب مجلة أكاديمى فأكرمه وأذاع
أدبه ، وكان الفقر قد عضه ينابه فأدمن الأفيون كما كان يفعل دى
كوينسى ، وكان حبه الأدبى منصباً على مؤلفات إيثيل وويليم بليك
ودى كوينسى ، ولعله تأثر بعادة هذا الأخير فوقع فريسة المخدرات
وقد بغضه إدمان المخدرات فى المجتمع فهجر الناس وأخذ يأوى
إلى ضفاف نهر التيمس وبوائك محطة تشارنج كروس وظلال
الاعمدة فى كوفنت جاردن بلا صديق ولا بيت ولا زوجة ، ولا لوم
على أحد فى ذلك فقد فتحت له أليس مينيل وزوجها ويلفريد بيتهما
وأكرماه كلما تمكنا من قصيدة ، فقد كان ضيفاً صعب المراس يفر
من الناس ويأبى لقاعهم حتى أخلص الناس له ولا يعلم أحد أن
علاقته بوالديه عادت الى ماكانت عليه ، على أنه طوال حياته كان
طاهراً نقياً لم يعرف دنساً وقد تحول من التدين الى التصوف
والبحث عن الخالق ، ولم يطلب من عالم المادة شيئاً ولكن طلبه كان
منصباً على الروح التى تحتقر الجسد وتستهن به ، لم يعلم ماهى

راحة الحياة فى البيت الهادئ ولم يفهم معنى الادخار للمستقبل
وكل مغامراته كانت فى عالم الروح . وكان عقله فى كل ماعدا روحه
وربه عقل طفل لا يدرك ولا يميز ، ولذا لم يعرف للمال قيمة فإذا بعث
إليه صاحب المجلة أو الناس صكاً أو تحويلاً داخل خطاب فلا
يفتحه ولا يكثرث له ولعله يشعل سيجارته بالتحويل والغلاف ، فكفوا
عن إرسال المال إليه وقنعوا بتسديد حسابه ودفع ديونه وإرسال
قليل مال لينفقه بيده ، كان شعره ثورة على الدنيا ، لم يتحد العالم
ولكنه أنكر وجوده وعاش فى درجة أقل مما يقتضى الازدراء فتقلب
على الدنيا :

وهكذا الناس كانوا منذ ما فطروا

فلا يقول جهول إنهم فسدوا

لقد اتخذ من الفقر والأفيون دواء مسكناً لداء الروح . نظم
قصيدة « صياد السماء » وصف الله فيها بأنه يتبع عبده الى أن
يعودوا اليه . كان تومسون يبحث عن ربه ويفر منه وهو يطارده ،
يريد أن يقول أن لا مفر من الله فى كل زمان ومكان مهما حاول
المخلوق ذلك ، أين يذهب من صياد الكون ، المؤمن يبحث عن الله
والله يبحث عن المؤمن وفى هذه الفكرة عذاب الانسان الباحث الذى

لا يجد لأن الذى يبحث عنه يتتبعه ويريد اصطياده .

لقد عرفنا ويلفريد مينيل وزوجته أليس مينيل فى نفس السنة التى مات فيها تومسون وهما شاعران يعيشان فى لندن فى بيت فى وسط المدينة أكسفورد ستريت ، وكان ويلفريد مينيل مشغولاً بتنظيم تراث تومسون وجمع كتبه لنشرها، ومما عثر عليه مسودات المقال عن شيللى الذى رفضته مجلة دويلين فنشرته فى تلك السنة مُعلنة أسفها على قلة إدراك محررها قبل عشرين عاماً .

وكان مينيل وهيند وويلفريد بلنت من الأدباء الميسورين لم يضمنوا على أديب أو شاعر بالمعونة المادية والأدبية سواء أكان صديقاً أو غريباً عنهم ، وكلا الرجلين من أهل مقاطعة الجنوب سوث سسكس ومن أصول كريمة وكان تومسون أثناء حياته الأدبية يحمل سفطاً كبيراً كالذى يحمله صيادو الأسماك لينقل فيه الكتب التى تهدي إليه لينقدها ، فكان هذا السبت الكبير الملازم له يميزه لدى الخاصة والعامة . لقد كان مفلوكاً ومجنوناً معاً وكان غائباً بذهنه عن العالم الذى يحيط به ، ولكنه كان حاضراً بروحه مع الكون وإلاهه . وكل شعره عبادة وتمجيد ولم يصل أحد من شعراء عصره الى جمال اللغة وطلاوة الأسلوب وقوة المعانى الروحية التى وصل

إليها ، كان جميل الصورة وحشى المظهر بادی الألم مهملاً فى ترتيب شعر رأسه ولحيته ولكن منظره يترك أثراً قوياً فى كل من يراه ، ولا يمكن أن يجهل المستمع إليه قدره ، فهو يتكلم بلسان عالم كيس مهذب العبارة واضح البيان ، وكان يكره المال ولا يطيق أن يراه أو يحمله لأنه لا يدرى كيف ينفقه أو يتصرف فيه ، وكانت كرامته فوق كل شىء ، لا يتكلم فى شىء من موضوع نظمه ولكن يسهب فى وصف الصغائر ولو وضعت بين يديه لعبة طفل فلا يتردد فى أن يتقبلها ويلعب بها فرحاً كما يفرح الطفل . كان موهوباً ليعبر عن فكرة الروح وانطواء الكون فى النفس الإنسانية ، فهو فى ذلك لم يكن أقل من ويليم بليك وشنيلى وكيتس وورد زورث ولكنه لم يتأثر بهم ، فقد بلغ فى روحانية نظمه بعض شعراء القرن السابع عشر المتصوفين دون أن يقرأ شعرهم ، وهذه النزعة التصوفية كانت تعم شعراء العصر حتى فى فرنسا نفسها كما كانت حال بول فيرلين الذى تحول من الخمريات الى الغزل ومن الغزل الى التصوف ولم يستطع إظهار فنه بأكثر من خلق أساليب وأوزان جديدة . وكان هو الآخر مفلوكاً بل كان زعيم المفاليك فلم يفلج فى وظائف الحكومة ولا فى الزواج ولا فى الانتفاع بأدبه ولا فى الصداقة ،

وقضى كثيراً من عمره فى الجلوس على قارعة الطريق يشرب
الإبسن حتى يغيب عن وعيه ، ولكن لم ير الراؤون قوة فى التعبير
كقوته حتى فى أشد أوقات محنته وقد يعجب أحد من القراء من
اتحاد هذه الصفات سواء أكانت محامد أو هنات فى نفوس وأرواح
مختلفة النشأة .

(٤) المحارفة والصحافة

بينما ترى حافظ إبراهيم يشكو الزمان فى الحل والترحال ،
ويندب حظه فى الوطن وفى الاغتراب ، ويفرح ببدة جديدة ويخلق
أديم وجهه فى معاتبة الإخوان ويتلمس الرزق من كل ناحية ويناجى
العظماء لينقذوه مما أصابه من الويلات والبلاء ، إذا بشوقى يمرح
فى نعيم القصور ويغترف من خيرات الملك ويكيل المال كيلاً ويذرع
الأرض فى أفخم السيارات ميلاً قميلاً ، ويحيى مغانى المسرات
نهاراً وليلاً ، وينظم القصائد الطوال فى وصف المراقص والمآدب ،
ويطيل فى مدح مولاه ووصفه بأنه قيصر المشرق وكسرى مصر
وخير خلف لرمسيس ١٠٠٠ إلخ ، وهو لا يشعر بالفقر ولا تخطر بباله

الحاجة ، ولا يفكر فى مدّ يد المعونة الى أحد من هؤلاء الشعراء وإن لم ينالوا شأوه باعترافهم أمثال حافظ إبراهيم وأحمد محرم وأحمد نسيم والكاظمى ، إلا أنهم قد انتسبوا الى الشعر ورفعوا له رايات .

وعندما تسنح له فرصة الكلام على الأدباء تراه عارفاً حكم الدهر فى الأدب والأدباء عامة وفى رجال الصحافة خاصة ولا سيما فى مصر ، فهو لا يندب حظهم ولكنه يكفكف دموعهم وينصح لهم بالصبر والتأسى والرضى بالكفاف والقناعة بالقليل وليس هو فى شىء من ذلك ولا يرضى به ، ويشير الى « حرفة الأدب » وما يصاحبها ، ويحاول تعزية زملائه وأنداده الذين لم يسعدهم الحظ ، تارة بالنبوغ وطورا برضى الضمير ويسخر من الترف إلخ .

ولأجل أن يدرك القارئ حقيقة هذه المسألة يصح له أن يعلم أن الصحافة فى مصر على حداثة عهدا اتخذت صفة المستقر للأديب والشاعر لأن الإنتاج فيها تساعفه المطبعة والنشر والعرض السريع على القراء .

ولذا اتخذ الصحفى صفة الأديب بحق أو بغير حق واشتغل كثير من فحول الأدباء بالصحافة بل وأكبر من الأدباء . ولم تكن

الصحافة سوى الوسيلة الوحيدة للتعبير عن آراء الأدباء والمفكرين ومواهبهم بأسرع وقت وأيسر سبيل . ويكفى للكاتب أن يمر الفكر بخاطره فيدونه ثم يبعث به الى صحيفة فيراها فى غروب النهار أو فى شروق الشمس منظماً مصححاً مطبوعاً معروضاً خير عرض للأنظار والأسماع .

ومن هنا جاءت مكانة الصحافة وأهميتها واتصال الأدباء بها، فإن الأديب والمفكر والشاعر لم يكن يملك أحدهم وسيلة لنشر أفكاره غير هذه ولسانه ، ولكن الصحافة جعلت فكرته أو قصيدته أو نظمه على كل لسان بين عشية وضحاها .

وكان شوقى من أوائل من عرفوا قيمة الصحافة فكان يخشى جانبها طوال إقامته فى منصبه فى السراى وبعد خروجه وعودته من أسبانيا . وكان له أصدقاء بين رجال الصحف يتألف قلوبهم ويرعى مودتهم لأغراض شريفة فى نفسه ، وكان يعتقد أن الصحافة أصبحت الملجأ للأديب المحترف الذى تلجئه الأحوال لتنظيم إنتاجه، وكان يطوف بدور الصحف زائراً ومتودداً ومتنقلاً وقيل إنه كان يوجه أحياناً أقلام بعض كتابها وأحياناً يعمل على اتقاء حملاتها . فلما ألف أصحاب الصحف العربية نقابة تجمع كلمتهم بعد

الحرب العالمية الأولى جاملها شوقى بقصيدة فائية كانت الأولى من نوعها^(١) ، وصف فيها الأمة المصرية بالأمية حيث يقول :

وتمشى تعلم فى أمة

كثيرة من لا يخط الألف !

ثم استطرد الى وصف بشقاء الأديب المحترف كما لو كان هذا الشقاء أمراً ثابتاً مفروغاً منه ولا بد عنه وأنه يعرفه وإن لم يتذوقه قال :

فيا فتية الصحف صبراً اذا

نبا الرزق فيها يكم واختلف

فإن السعادة غير الظهور

وغير الثراء وغير الترف

ولكنها فى نواحى الضمير

اذا هو باللؤم لم يكتنف

خذوا القصد واقتنعوا بالكفاف

وخلوا الفضول يغلبها السرف

(١) الشوقيات ، ص ١٩١ ، ج ١ ، مطبعة مصر .

وروموا النبوغ فمن ناله

تلقى من الحظ أسنى التحف

وما الرزق مجتنب حرفة

إذا الحظ لم يهجر المحترف

إذا أخت الجوهري الحظوظ

كفلن اليتيم له فى الصدف

وإن أعرضت عنه لم يحل فى

عيون الخرائد غير الخزف

وإنها فى الحق قصيدة عجيبه المباني بعيدة المرامي ،

غامضة المعانى ، فإنه بعد أن أشاد بالصحافة ووصفها بأنها « آية

هذا الزمان » ولسان البلاد ونبض العباد وكهف الحقوق وحرب

الجنف وعدو الحيف وسيف المظلوم فى وجه الظالم ، انتقل فوراً الى

نصح فتية الصحف بالصبر اذا نبا الرزق بهم ، ولم يشعر أحد من

أصدقائه وأحبابه بأن الشاعر العظيم كان يوماً فى حاجة الى هذه

النصيحة ، فقد اشتهر رحمه الله بسعة الرزق واليسر والتوفيق ثم

أخذ يطرق باب الفلسفة وتعريف السعادة وأنها تستقر فى الضمير

النقى ، وليست السعادة معلقة بالشهرة ولا المال ولا التمتع فى

الحياة ولا فى الصحة ولا الشبع ولا الحصول على المناصب والرتب
ولا فى شىء واحد مما أجمع الناس على أنها جماع السعادة
كاقتناء القصور الفخمة فى البساتين والحدائق وعلى ضفاف الأنهار
والتنقل فى عواصم أوروبا وأفريقيا وآسيا وأن هذه النعم كلها التى
أجمع الناس على أنها أدوات السعادة ولا المال والبنون أعنى الأولاد
والبنات والأحفاد والاستمتاع بإعجاب الناس ومديحهم ، ليس شىء
من هذه كلها ولا مجموعها يمت بصلة الى السعادة ، وأن السعادة
قد اتخذت لنفسها محلاً مختاراً فى الضمير النقى الطاهر إذا هو
باللؤم لم يكتنف . ولم يفتح أعين فتية الصحف الى طريق ذلك
الضمير النقى إذا كان صاحبه ملزماً بالكفاف وترك فضول المال
وكيف يبلغ أحدهم ذلك النبوغ إذا كان رزقه مرتبطاً حتماً بالحظ
المتصرف فى أعمال الناس وأعمارهم ، وفيهم يفيد النبوغ مع
إعراض الحظ إذا كان إعراض الحظ ييغض الخرائد فى الجواهر
التي يتجر بها جوهري سىء الحظ ويحبب إليهن الخزف الذى يتجر
فيه خزاف مجدود ؟

أليس فى هذا الشعر كثير من التناقض ؟

شوقى بك رحمه الله لم يعرف الشقاء ولم يتذوقه ولكنه شهد

ولسه فى حياة الأدباء المعاصرين وهو خجلان من سعادته وأسف
لشقاء أنداده فكيف يهنئهم وكيف يعزيهم فى أن واحد ؟
لقد رفع من شأن الصحافة وهى حرفتهم وهم أعلامها ولكن
الصحافة بنت مسعودة لتلك الحرفة المنكودة التى تدرك صاحبها
فتهلكه .

فلم يجد الشاعر العظيم المرحوم إلا نصيحة الصبر على أمر
مسلم به سلفاً وهو نبؤ الرزق واختلافه ، وماذا يكون أجر هؤلاء
الذين رفعوا علم الصحافة علواً ؟

بالضبط نصيحة الفقهاء والقساوسة والكهنة والمحافظين ،
احتقروا أعراض الدنيا الزائلة وهى الظهور والثراء والترف وابتحثوا
عن السعادة فى الضمير واذبحوا أنفسهم على هيكل النبوغ لأن
النبوغ كفى بالحظ والتحف ، ولكن هذا الحظ ليس مقيداً بالنبوغ
فقد يسعف الجوهري الذى يتجر بالصدف فيلقى فيها الدرارى
اليتيمة كما يصحب تاجر الخزف فيغلو الخرائد فى حبه ويتنافسن
على اقتنائه كما يفعل بنات الزنوج فى أواسط أفريقيا .

ومجمل القول أن شوقى على نبوغه وعبقريته وعمق تفكيره
حائر مضطرب ، فهو لا يدري كيف يعلى شقاء الأدباء ولا يدري

كيف يغريهم فأرغمه الفن وأجبرته الحكمة الشعرية على المزج بين
الضمير والنبوغ والحظ وتجارة الجواهر . ولكن النتيجة سلبية وغير
مؤدية الى حل المسألة .

لم ينادى أمير الشعراء بالصبر ؟ ولم يصرف أنظار فتية
الصحف عن السعادة ؟ ولم لم يجد مصدراً أو مورداً للنصح غير
النبوغ والحظ والجوهري ؟ ولم يلزم الأديب الكفاف ؟
هل أجاب شوقي على السؤال بالجمع بين تجنب الرزق
والحرفة وهجران الحظ للمحترف ؟

الحقيقة أن شوقي لم يكن فى هذه القصيدة إلا مردداً لصدى
أسطورة عتيقة منتشرة فى الشرق العربى من قديم الزمان وهى أن
الرزق يتجنب حرفة الأدب ، ولذا قيل أدركته حرفة الأدب ، فى حين
أن الصحفيين الذين عاصروه كانوا من الأغنياء والسراة وأصحاب
الألقاب والرتب والمقاعد فى مجلس النواب ومجلس الشيوخ ولم
يتصل شوقي بأحد من الأدباء المفلوكين ، لأنه كان يفرّ منهم ويعتذر
إليهم حتى تألبوا عليه واتخذوا نقده وتفنيد شعره نوعاً من العبادة ،
وهو زحمة الله لم يكن يحترم فى حياته ولا يجرى وراء شىء غير
الأشياء التى زهد فيها « فتية الصحافة » ، وكان يعلم عن نفسه أنه

مجدود ويقول ذلك ويقاخر به وأنه مولود بيباب الملك وقد فتح عينيه على الدنانير التي ألقى بها أحد ولاة مصر ليلتقطها علاجاً لعينيه وقد احتفظ بهذا العلاج طوال حياته ولم يفرط فيه ، ولكنه لم ينصح به لأحد سواه ، بل نصح بالصبر والقناعة بالكفاف والاكتفاء بالقصد والاستغناء عن فضلات المال الزائدة عن الحاجة لمن لا مال عندهم ، وليته اتجه نحو المسألة ليحلها ولم يتبع طريقة الكهنوت والرأسماليين الذين ينصحون للمظلومين بالصبر لينالوا أنصبتهم في العالم الآخر، ولو كان هذا النصح موجهاً الى فريق العمال أو الفلاحين كان مفهوماً أو محمولاً على الفرق بين معقوليتهم ومعقولية الشاعر العظيم ، ولكنه للأسف موجه الى الناطقين بلسان البلاد والقايضين على نبض العباد وسدنة كهف الحقوق وجنود حرب الجنف وحراس تلك الآية العصرية التي تسير فسير الضحى في البلاد يمزقون بالعلم ستور الجهل والظلام .

وفي الحق أن المرحوم أمير الشعراء لم يكن موفقاً في هذا النصح مثل توفيق معاصره حافظ الذي نعى نفسه ورثاها ووصف حالته وصف خبير بالدنيا متألم لها ولا يخفى حقيقة حاله ولا يكابر في أفعال الأقدار ولم يحاول أن يقدم جرعة الصبر والقناعة لأحد ،

كان ثائراً ساخطاً حائقاً من الأخرى إذا تبعه إليها حظه الدنيوى ،
فانظر الى الفرق الشديد بين شعر شوقى الذى لم يكابد حرفة
الأدب ومايتبعها وبين شعر حافظ الذى كابد حقا وصداقاً أربعين
عاماً من حياته ، فكان الإخلاص والصدق متجليين فى شعره كما
كانا متجليين فى شعر بعض شعراء فرنسا المفلوكين وفى مقدمتهم
ألفريد دي فينى فى قصيدته الفذة « موت الذئب » .

(٥) من أحوال الأدباء المفلوكين

إن الحالة التى يكون عليها الأديب الذى يهجره الحظ ، على
نبوغه إذا استولت عليه وسلبته القدرة على الأفعال ، انتقل الى
الاسترواح والتنفس بالأقوال وذلك لما فى المنظوم والمنثور من راحة
وفرغ وتنقيص من ألم الباطن ومايصحبه من تنغيص ، ولذلك قلما
يطبق كتمان الأسرار إلا الواحد الفذ ، وكذلك قلما يطبق استدامة
أقوال تخالف ما فى باطنه إلا الداهية الكتوم ، وقد شاهدنا من ذلك
النوع واحداً على أكبر نصيب من الذكاء والفطنة والقدرة على قهر
النفس وكان يحيط نفسه بمظاهر الرضى والسرور وعدم المبالاة

والاستخفاف بمظاهر الحياة الناعمة ، ولكنه كان فى بعض الأحيان لا يملك أن يفضفض وينقل ويتبسط ثم يرجع الى نفسه فيقبض على زمامها . أما من سواه من نوعه وهم الأقل ذكاء وفطنة ودهاء والأقل علماً بطبيعة النفس البشرية وحسبان ما يكون فى أذهان المخاطب من رغبة الاطلاع على حقيقة حاله أو الشماتة به ، فهؤلاء ينصبون أنفسهم فى وسط ابتلائهم خطباء وشعراء وحكماء ، فمرة يسلون أنفسهم بترجيح الكمالات النفسانية على الكمالات المادية بالأدلة الخطابية والتشبيهات الشعرية .

ولذا جاءهم شوقى بنقاوة الضمير والقناعة التى هى كنز لا يفنى والرضى بالكفاف ومحاولة النبوغ والاجتهاد إلخ ، لعلمه أن هذه الصور الكلامية ترضيهم ، ومرة يذكرون حالتهم ويصوغون عنها أعاراً وحكمة وتشبيهات رائعة وكلمات فائقة تنقيصاً من بشاعة صورتها وليشغلوا المستمعين بما يوردونه فيها من محاسن الكلام عن الفكرة فى صورتها الأليمة ، ومرة يسابقون إلى ذكر مساوئهم ويجعلونها رقة أدبية أو نكتة شعرية أو كلمة هزلية قبل أن يذكروا غيرهم ليصرفوا الناس عن الاشتغال بها وليكون ذلك أخف على نفوسهم ، لأن الشخص لا يأنف من نفسه ما يأنفه من غيره

ولا يثقل عليه كلامه ككلام غيره ، وإذا ترقى الأديب كتب هذا كله
فى كتاب كما صنع جان جاك روسو فى اعترافه الضخم الذى أقر
فيه بالسرقة واتهام الغير لينجو من الملام ثم الندم على ضحاياه
والقاء أولاده الخمسة فى ملاجئ اللقطاء حتى التزم بعض
النبيلات بالبحث عنهم على غير جدوى بعد مضى عشرات
السنين..... إلخ .

ويروى أن الأخفش الصغير كان يستظهر الأهاجى التى
هجاه بها ابن الرومى ويوردها فى جملة مايورده من محفوظة ، وفى
تاريخ الأدب المصرى الحديث شىء من هذا القبيل فى ترجمة أحمد
أبو الفرج الدمنهورى (آخر القرن ١٣ الهجرى) ، كان يعاشر من
الأدباء والأغنياء كالزرقانى والقبانى والدفراوى وعبد الخالق
السادات وشاهين باشا كنج والنديم وتيمور وقراءة ويتردد عليهم
ويستعين بهم ، وكان يتظاهر أمامهم بأنه مفتون بشعره فيبالغ فى
تقريظ نفسه وقت إنشاده ويمزج ذلك بإشارات وحركات مستظرفة،
كأن يسكت هنيهة كالمأخوذ من جودة نظمه ثم يلتفت يمنا ويسرة ،
مستطلعا خبيئة رأيهم فيه ويستحلفهم بالله وأنبيائه وملائكته هل
طرق أذانهم مثله فى حياتهم ثم يقول عن نفسه « سبىحان المانع !

كم ترك الأول للآخر ! » ، فإذا مر بجناس أو تورية من صنعه وثب من موضعه وتمايل طرباً ، ثم ينظر للحاضرين ويقول لهم « اسمعوا من الفتى العربى اللعوب (كذا) تف على فلان (الشاعر القديم ولا نذكر اسمه احتراماً له) وسحقاً له ! أين له هذه السلسلة والسهولة» ، وقد حار فيه معاصرون فقال أحد أعلامهم : إن أبا الفرج عندى مشكلة من المشاكل لا أدرى أهو ثقیل أم ظریف .

والحقیقة أنه رجل عادى جعله سوء الحظ ثقیلاً فحاول التظرف المصطنع ليقاوم فعل الأقدار به مجتهداً .

وكان فى ذلك مقلداً بدون علم لأحد أبناء المنجم الذين ذكرهم الثعالبى فى الیتیمة وأورد فصولاً للصاحب بن عباد فى وصفهم .

وكان هذا الأديب يعلم حق العلم أنه يمثل دوراً ضعیب المراس ويعلم مقاصد ناقدیه أو المعجبين به ، فكان مثلاً يزعم أنه من نسل أبى الفرج الجوزى وأبى الفرج الأصبهانى لمجرد كنیته ، فلما قال له أحدهم أنت من نسل أبى الفرج البیغاء قال : أى نعم وهو الواقع ، ولا شك فى أنه كان يعلم قصد محدثه فى أمر نسبه إلا أنه كان يخرج مخرج الجد حتى مع أخص الناس به ويغضب ممن ينكر علیه ، ومات هذا المسكين فى العقد الأول من القرن ١٤هـ فجأة من

من كثرة الهموم بعد أن جمع له أغنياء البلاد لمبلغاً اشترى به عقاراً
ورمى داره .

هذا مفلوك أمكنه أن يحول تيار فلاكته بالإضحاك على نفسه
حتى أشكل أمره على العالم الذي أصاب كبد الحقيقة بسؤاله هل
هو ظريف أم ثقیل ، والواقع أنه وأشباهه فى حالة حيرة ودهشة
ولذا تراهم حيناً ينصحون بطلب المجد والثروة وطوراً يأمرون
بالقناعة ويذمون الأيام ويتضجرون .

ولعل هؤلاء الأدباء أنفسهم هم الذين جعلوا للحظ تلك المكانة
.. فى تصريف أمورهم ، وهم الذين حاروا فى تعليل الاختلاف
ونصحوا بالقناعة والرضى بالمجد المعنوى دون المجد المادى ، وهم
الذين وصفوا الدنيا بالغرور والخداع والغدر « أنظر أشعار المعرى
فى هذا المعنى فى لزوم ما لا يلزم » واسمع الى قول القائل فى إقبال
الدنيا وإدبارها :

فتكسبه إن أقبلت حسن غيره

وتسلبه إن أدبرت حسن نفسه

ألا ترى فى شعر شوقي أثراً من هذا المعنى حين

يقول :

إذا أخت الجوهري الحظوظ
كفلن اليتيم له في الصدف
وإن أعرضت عنه لم يحل في
عيون الخرائد غير الخزف
والدنيا في الشعر القديم هي « الـ » حظوظ « في الجديد »
وعن القناعة يقول أحدهم :
ولقد أضمت إليّ فضل قناعتى
وأبيت مشتملاً بها متزماً
وأرى العدو على الخصاصة شارة
تصف الغنى فيخالنى متمولاً
وإذا امرؤ أفنى الليالى حيرة
وأمانياً أفنيتها توكلاً
ومن فخرهم فى الصبر على الشدائد :
عجبت سعاد من ارتياحى للعلا
فى العدم وهو يقلّ غرب الجامح
لا يغشنى الإقتار عاراً إنتى
رحب الذراع بكل خطب فادح

ولربما نهض المقل بعبيئه
وحبابه المثرون حبو الرازح
ومن سخافة بعضهم قوله :
شغلنا بكسب العلم عن مكسب الغنى
وصار لنا حظ من العلم والفقر !!
ومن المرضى بالغرور وداء الفخامة :
وقالوا توصل بالخضوع الى الغنى
وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبينى وبين المال شتان حرما
على الغنى نفسى الأبيّة والدهر
إذا قيل هذا اليسر أبصرت دونه
مواقف خير من وقوفى بها العسر
ومن شعر لصالح بن عبد القدوس :
المرء يجمع والزمان يفرق .
ويظل يرقع والخطوب تمزق
ما الناس إلا عاملان فعامل
قد مات من عطش وآخر يغرق

والناس فى طلب المعاش وإنما

بالجد يرزق منهم من يرزق

لو يرزقون على وزان عقولهم

ألفيت أكثر من ترى يتصدق

أحب أن أعلم ما الذى غرس فى أذهان هؤلاء الفضلاء حقارة
الغنى حتى مع الجهل وجلالة الفقر مع العلم ، ولم لا تجتمع
فضيلتان وهما الغنى والعلم وتلتصق مصيبتان وهما الجهل والفقر ،
ومن الذى أوعز إليهم أن ينظموا الأشعار ويؤلفوا الحكم فى وصف
حالتهم وتعليل الرضى بها ، وكان كثير من أدباء العرب فى حالة
غنى ورفاهية كالصاحب بن عباد وعبد الحميد الكاتب وابن المقفع
وبديع الزمان والمنتبى والجاحظ . ولو أن بعضهم عاش الى هذا
العصر لرأى ما وصل إليه الأدباء والعلماء فى أوروبا وأمريكا وآسيا
من الجاه والمال وتفتح أبواب الخير فى وجوههم ووصول كثير منهم
الى أعلى مناصب الدولة مثل إدوار هريو فى فرنسا وويلسون فى
أمريكا وهالدين وبلفور فى إنجلترا وتاغور فى الهند .

إن أدباء الشرق مصابون بداء معروف عند علماء النفس وهو
« إنهيبيسيون » Inhibition وهو ظاهرة عصبية تقلل من قدرة

الإقدام فى جزء من الكيان الانسانى أو تعدمها بتاتاً ، ويخلط
الناس بينها وبين الخجل والحياء والتردد كقول الشاعر :

حيائى حافظ لى ماء وجهى

ورفقى فى مطالبتى رفيقى

ولو أنى سمحت ببذل وجهى

لكنت الى الغنى سهل طريقى

ويقول حافظ ابراهيم :

« لا تخلق أديم وجهى »

ويرى بعضهم فى التوسل باللين الى الغايات خضوعاً لا يليق
بكرامتهم ويرون أن هذا اللين هو الخضوع وأن الخضوع هو الفقر
بعينه ، وترى بعضهم يقسم الناس قسمين ، القسم الأول من ذكرنا
ووصفنا من أهل العلم المصحوب بالقلة والإعسار، والثانى أهل
الغنى ومعظمهم جهول ، وأهل الغنى بمعزل عن هؤلاء وعن العناء
فيهم بألف معزل قد أغناهم الفعل عن القول وفضول المال عن
فضول الحاجة والأعذار عن الاعتذار ، ويصور للأولين أن الآخرين
فى غنى عنهم وليسوا بحاجة إليهم ، وهذا التصوير صادق الى حد
ما ، صدق قديماً عندما كان العلماء والأدباء يرتزقون بالتقرب الى

أهل الغنى والجاه كما فعل الشعراء بالمديح والمفكرون بتأليف الكتب
للأمراء والوزراء ، ولكن أوروبا كسرت هذه القيود عندما ظهرت
الطباعة ونشأت فئة الناشرين وأصبحوا يخطبون مودة المؤلفين
والشعراء ، فكتب جولد سميث يقول « الآن يحق لنا أن نعيش
ونتدال فقد أصبح لنا قراء يطلبون أدبنا ويتوسط بيننا وبينهم
الطابعون والناشرون » .

وكانت الحكومات بعد الأمراء تهب النابهين مرتبات شهرية
(الدكتور چونسون فى انجلترا) وقلدهم الشرق فصارت الحكومة
العثمانية فى عهد السلاطين تمنح العلماء مناصب ومرتبات ، وكثير
من أدباء مصر نالوا مالاً على هذه الطريقة كالمرحومين عبدالله نديم
وإبراهيم المويلحى وقبلهما السيد جمال الدين الأفغانى وكان فى
مصر يتقاضى مرتباً من وزارة رياض باشا ، ولما كثر عدد هؤلاء
الأدباء والعلماء ، غلت الحكومات أيديها وأشفقت أن تكون فريسة
للأدعياء ولكنها لم تمنع رقعها أبداً عن أمثال أحمد فارس الشدياق
الذى نال حظوة فى تونس وفى دار الخلافة وفى مصر ، ولكن كل
هذه المعاشات والإعانات والمكافآت كانت عليها صبغة المذلة لأنها
تدفع فى الظاهر بغير مقابل ، وكأن الخطاط أو النساخ أو الغبى

الذى ينقل نقل مسطرة ويتقن زر ثوبه وتنظيف حذائه وهو موظف كتابى أحق بالحياة من العالم أو الفيلسوف أو الشاعر المثقف ، وحتى وظيفة حافظ إبراهيم بدار الكتب كانت عليها صبغة المنحة وقد تشدق المخرقون والجهلاء بأنها وسيلة للارتزاق ليستريح الشاعر من القلق على قوته ، كأن فى دار الكتب أو غيرها كثير من أمثال حافظ فى أدبه وتبحره وأسلوبه ووطنيته ويحسبون أنه ظفر بالوظيفة لا أن الوظيفة ظفرت به وتشرفت ، وما صنعها ناظر المعارف فى ذلك الحين إلا تقليداً لحكومة فرنسا التى كانت تعين كبار الأدباء أمناء ومديرين لدور كتب الحكومة صيانة لهم من التبذل فى معاملة الصحف الفرنسية ، على ما بينها وبين الصحف المصرية من الفروق ، وعندما نصب معين محمد توفيق الزجال الرقيق فتح حانة ، وآخر جمعوا له وفتحوا له « مطعم فول » ضاربين صفحاً عن علمه وأدبه ومحتمين عليه أن يعيش بجمع المليمات فى فجر كل يوم، فلما أفلس غيظاً قالوا « فلان لا يصلح للأعمال الحرة » .

على هذه الوضعية الذهنية قال الشاعر القديم :

أهل المناصب فى الدنيا ورفعتها

أهل الفضائل محقورون بينهم

قد أنزلونا لأننا غير جنسهم

منازل الوحش فى الإهمال عندهم

فليتتنا لو قدرنا أن نعرفهم

مقدارهم عندنا أو لو دروه هم

لهم مريحان من جهل وفرط غنى

وعندنا المتعبان العلم والعدم

انظر الى قوله « غير جنسهم » لقد استبان أن الجاهل

والغنى الغبى يرى العالم والناخب أنه غيره ومن طينة غير طينته ،

ولذا فهو يخشاه ويحقد عليه ويشمت به ويسره أن يراه فى حاجة

مطلقة اليه وإلى غيره من أهل نوعه .

وبذا وجدت الهوة السحيقة بين الفريقين ، فواحد يعتبر العالم

وحشاً والعالم لم يتعفف عن الاتصال به وهماً فى حاجة الى

بعضهما بعضاً حتى الحكومات بعد الأمراء تتقرب الى العالم

والمصلح لأن فيها حتما رجلاً أو رجلين يعلمان حق العلم أن هذا

العالم أو الفيلسوف قد يكون كالطفل فى علاقته بالمادة ، وقد يكون

فى حاجة الى من يقوم بنفقاته ويسدد ديونه ويتعهده كما رأينا فى

حياة ذلك الأديب الأنجليزى الذى كان يحسن كل شىء من فنون

العقل والأدب والحكمة والتصوف إلا فن الحياة فلا يدري فيه شيئاً.

وقد يكون الحاكم الجاهل حاسداً للنايغ كما يكون الغنى الغنى عدواً للنبيه النابه ، سمعت رجلاً ذا مال عظيم يقول لأديب رقيق الحال يكسب قوته بأدبه وعلمه « وددت لو أضيع كل مالى لأربح رزقى بمجهودي كما تفعل » . . . وكان فى ذلك مخلصاً فطناً ، ولكن لم أر عالماً ذكياً يتمنى فقد علمه وذكائه لقاء المال لأنه حينئذ لا يجد عقلاً يستمتع به فى إنفاقه ، وترى الأديب نفسه وذويه يتسائلون عن اجتماع الذكاء والمعرفة الى القلة المادية ، فيردد الشاعر هذه الحيرة وهذا التساؤل :

وقائلة ما بال مثلك خاملاً

أأنت ضعيف الرأى أم أنت عاجز

فقلت لها ذنبى الى القوم أننى

لما لم يحوزوه من المجد حائز

وما فاتنى شئ سوى الحظ وحده

وأما المعالى فهى عندى غرائز

وقبله قال الزمخشري :

كم عاقل عاقل ضاقت مذاهبه
وكم جاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأوهام حائرة
وصير العالم التحرير زنديقا
ولكن المرأة صدقت فى سؤالها وجوابها .

إنه بلا ريب لا ضعيف الرأى ولا عاجز ولكنه جاهل بفنون
الحياة التى تتطور بتطور الزمان ، وهى كتلة ضخمة من الاستعداد
الفطرى والقدرة على اللف والدوران والتحايل والتصنع لو أتقنها
العالم والأديب فإما ذهبت بمواهبه وإما أوقعته فى الورطات وذلك
فى الجماعات المتأخرة ولدى أنصاف المتمدنين كمعظم الشرقيين .
ولكن كثيرا من أهل المواهب يضحون بالمواهب فى سبيل
النجاح المادى أو ما يسمونه كذلك عندما يتأكدون أن تلك المواهب لا
قيمة لها عند أقوامهم .

جاء المرحومان فرح أنطون وإسحق باسىلى فى مركب واحدة
من طرابلس الشام فى طلب المجد والمال فى مصر وقد تخرجوا من

مدرسة واحدة واشتغلا فعلا بالأدب فى مدينة الاسكندرية ، وقد ذكر هذا الحديث كلاهما الأول فى سنة ١٩١١ فى باريس والثانى فى مصر سنة ١٩٣٥ وانغمس فرح فى معاجمه وقواميسه ومراجعته وألف فى الفلسفة والأدب والتاريخ والاجتماع واشتهر ثم بدأت المادة تخونه فلم يقو المرحوم باسيلي على تيار الكفاح العلمى واشتغل بالتجارة وافترقت الطرق فمات فرح سنة ١٩٢٢ فى حالة الأديب الذى أدركته الحرفة ، ومات باسيلي صاحب ملايين سنة ١٩٤٠ ، سافر فرح أنطون الى أمريكا وسوريا وشمال افريقيا فى سبيل الريح من الفنون الجميلة وعاد مخففاً فى كل مرة، وسافر باسيلي الى روسيا والسويد وبولونيا فى سبيل الخشب وعاد رابحاً فى كل مرة .

كم سفرة نفعت وأخرى مثلها

ضرت ويكتدح الحريص ويخفق

على أن أسفار المأسوف عليه فرح أنطون فى مشارق الأرض ومغاربها لم تفده مالاً ولا خبرة ، فقد بقى طول حياته سليم الفطرة طيب القلب رضى النفس متحمساً للحق مدافعاً عن مبادئه ، ولم

يضممر عداً لأحد حتى للذين أخلوا به فى أخرج مواقف الحياة ، فكان يلتمس لهم الأعذار ويضفى على غدرهم ثوباً من الصفح والتسامح ، وكان كريماً حتى التبذير ، سخياً بروحه ، وفياً لذويه وأصدقائه ، يبذل ماله ويحرص على مال غيره ، وترك مؤلفات حسنة وكان له أفضل الأثر فى فتح أعين الشرق العربى الى إحياء الفلسفة الإسلامية والى الاتجاهات الجديدة نحو التحرر من قيود التقاليد القديمة ، وله قصص ومسرحيات وصحف ومجلات وكتب جيدة فى التاريخ والأدب والحكمة ومات فى الخمسين من عمره ولم يعقب نسلاً لأنه لم يتزوج فى حياته مع أنه كان فى شبابه زين الشباب جمالاً ورجولة وفضلاً .

(٦) حكمة الجوع !

من المنتسبين الى الأدب فى مصر رجال فضلاء يشبهون المرحوم شوقى بك فى تفجعهم على المصابين بحوادث الدهر ، وقد كتب أحد هؤلاء نبذة مؤثرة عن الطلبة الغرباء الذين انقطعت بهم وسائل العيش بسبب الحرب العالمية ، وقد أراد أن يعبر عن شعوره نحوهم فهناهم بهذا الجوع الذى يكابدونه بصبر وجلد ، وامتدح الجوع أو الصوم الإجبارى لأنه خير مهذب للقلوب النافرة والنفوس

الثائرة والعقول الجامحة^(١) ، ولكنه لم يذكر لنا أن قلوب هؤلاء الطلاب أو نفوسهم أو عقولهم كانت على شيء قليل أو كثير من النفور أو الثورة أو الجموح . ثم انتقل الى نفسه فقال :

(١) من الأعماق

حكمة الجوع

هنيئاً لهؤلاء الطلبة الغريباء ، هذا الجوع الذى يكابدونه بصبر وجلد . ذلك لأن احتمال الآلام رياضة عالية للرجولة واختبار لمعادن النفوس لأن الجوع خير مذهب فهو يرد الى القلوب النافرة استقراراها والى النفوس الثائرة هدوءا والى العقول الجامحة صوابها ، بل هو الملاك الطاهر الذى يطرق بقبضة يده القوية أبواب القلوب الموصدة ، لينفذ الى أعماقها الرحمة والحنان .

ما أحوج العالم الى الرحمة فى هذا العصر الذى يكاد الناس فيه يعبدون المال عبادة الأوثان . ما أحوج الى رجل رحيم ينظر الى ذلك الفقير الذى أكل البؤس لحمه ، ولم يغادر منه غير بشرة رقيقة كزجاجة الرسام تفصح عما وراءها من أضالع واهية وعروق مشة وشرابين يتعثر الدم فيها إبطاء وضعفا ، وقد حل الشحوب من جسمه ووجهه محل النضارة حتى لكأنما الفقير قد خلق من معدن الأرض الخسيس وخلق الغنى من معادن سماوية مزدانة بياقوتها وزمردها .

لن أنسى خلال دراستى فى إنجلترا تلك الأيام الثلاثة السود التى مكثت فيها جائعاً لنفاد النقود . لن أنسى حينما كنت أمشى على قدمى المسافات الطويلة باحثاً عن بائع للخبز القديم الرخيص لأقتات به . من ذلك الوقت شعرت بحب الفقير بل أمنت إيماناً راسخاً بأن حب الفقير هو السر الذى أودعه الله فى القلوب ، ويأته دين الانسانية جميعاً . بل دستور الله المقدس وقانونه للعالمين .

كامل بولس حنا

(جريدة الأهرام فى ٢٢ أغسطس سنة ١٩٤٠)

«لن أنسى (يعنى طول حياته) تلك الأيام الثلاثة السود التى مكثت فيها جائعاً لنفاد النقود ، لن أنسى حينما كنت أمشى على قدمى المسافات الطويلة باحثاً عن بائع الخبز القديم الرخيص لأقتات به » فهو الذى يصف الجوع بأنه ملاك طاهر ينمى الأيام الثلاثة التى زاره أثناء ذلك الملاك . ونحن لا نشك فى روايته وقد قيل لنا إنه رجل مثقف وكثير الغنى . وإن كنا نعلم بقوله أنه لم يجع تماماً لأنه كان يملك ثمن الخبز «الرجوع» الذى يسميه قديماً .

وإن كنا نعتقد أنه منذ عشرين أو ثلاثين عاماً عندما كان هذا الفاضل طالباً فى إحدى جامعات إنجلترا كأكسفورد أو كامبردج أو لندن التى يقصد إليها أولاد الأعيان أمثاله لم يكن يستطيع طالب فى حالته أن يجوع ثلاث ساعات فضلاً عن ثلاثة أيام حتى ولو أراد، لأن طعامه وشرابه ومسكنه وسائر حاجاته مضمونة ثابتة مستقرة ، ولأن الثقة التى يتمتع بها الطلاب الغرباء أمثاله فى بلاد أوروبا بصفة عامة وفى إنجلترا بصفة خاصة كفيلة بسد حاجة غرباء الطلاب قرضاً حسناً .

ولا شك فى أن أبناء الأعيان أمثاله لا يعدمون قيمة الرسالة البرقية التى يكون جوابها مئات الجنيهات فضلاً عن العشرات .

ولكن هذا الحديث وأمثاله إنما يدون للتندر والاستشهاد والتذكير
بأنه كان من المكتبيين لإعانة هؤلاء الطلاب وهو مما يشكر عليه لأنه
لم يكتف بالتفجع كالشعراء وندب حظ الأدباء وفتية الصحافة
والنصح لهم بالرضى بالقناعة والكفاف كما فعل شوقي .

(٧) الشاعر العراقي عبد المحسن الكاظمي

من الشخصيات الأدبية التي عانت معاناة أليمة في مصر
المرحوم عبد المحسن الكاظمي الذي ورد مصر في ١٨٩٩ وتوفي
فيها سنة ١٩٣٥ وتقلب به الأحوال تقلباً نادر المثال ، عندما أقبل
على مصر وكان في العقد الرابع فاستقبل وادى النيل بقصيدة
عينية رائعة نشرتها جريدة المؤيد ورحبت به ولم يزد المصريون على
ذلك شيئاً . وكان الرجل يحمل معه جواهر موروثة ومكتسبة أخذ
يتصرف فيها بالبيع والإنفاق من أثمانها ، وقد سعى إليه الشعراء
والأدباء فأفادوا منه وكان في مقدمة أصدقائه المرحوم محمد حافظ
إبراهيم الذي كان هو أيضاً مغموراً مطموراً ، فلما تعارفا وكان
حافظ شارعاً في نشر ديوانه فقرظه الكاظمي بقصيدة رائعة نظمها

ارتجالاً كان يملئها الشاعر على صاحب الديوان وقد احتفظ
الكاظمى بهذه الموهبة الى آخر عمره فكان يرتجل الشعر في
المواقف كلها . وكان شديد العفة كبير النفس لا يبذل وجهه ولا يمد
يده ولا يمدح كبيراً ولا يلتبس معونة من أحد ، فلما نفذ ماله قاسى
أهوالاً شداداً خصوصاً بعد انتقال المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ
محمد عبده مفتى الديار المصرية الذى كان يعرف أقدار الرجال ولا
سيما العلماء والأدباء سواء أكانوا مصريين أو شرقيين مقلبين على
مصر التى يعدونها وطناً ثانياً لهم .

وأقام المرحوم الكاظمى فى سنة ١٩٠٥ أو فى سنة ١٩٠٦ فى
مسكن صغير وأصابه مرض خطير أفقده بصره مؤقتاً وانقطع
أصحابه عن زيارته والسؤال عنه ولا سيما رجل مخلص رافقه من
الساعة الأولى اسمه محمد توفيق سورى الأصل مصرى الهجرة ،
ولطف الله بالكاظمى فتحسنت أحواله فى العقد الأخير من عمره
وتزوج منذ سنة ١٩١١ أو سنة ١٩١٢ ، وكان يشكو دائماً من
مكايدة بعض الشعراء المقدمين ووقوفهم حجر عثرة فى طريقه
وعملهم على تعطيله عن نشر ديوانه والعمل بكل الوسائل على
صرف الناس عنه وعدم اشتهاره عند الجمهور ، وكان أحد الشعراء

على الخصوص شديد الحسد له والحقده عليه بغير سبب سوى أن
الكاظمى شاعر مطبوع موهوب شريف النسب على الهمة رفيع
النفس وكانت هذه الصفات بذاتها سبباً في تبغيضه إليهم ، ولم
يكن هناك بينه وبين هذا الشاعر عداوة ولا منافسة ولكن الشاعر
المخاصم كان شديد الغيرة من كل شاعر سواء أكان مصرياً أو
ضيفاً ، ولم يكن في قلبه شيء من الشفقة أو الأريحية على ذلك
الغريب المنفرد اللاجئ . وقد أعان هذا الشاعر المعادى على إلحاق
الأذى بالشاعر العراقي كثير من أخلاق الكاظمى ، فقد كان مصاباً
بداء الخجل الشديد والامتناع عن العمل لمصلحته والترفع عن كل
وسيلة تشتم منها حاجته أو اضطارره حتى ليفضل الموت على
ما يظنه خطأ نزولاً عن مكانته ، ولعله ككثير من النوابغ وأصحاب
المواهب لا يعرف من فنون الحياة شيئاً ويجعل المعانى السامية في
نظره حجاباً بينه وبين قبضاء حوائجه ، وينتظر من الناس أموراً لم
يعرفها الناس في المشرق العربي ، الأول أن يعرف الناس قدره ،
والثاني أن يبادروا الى تمجيده وتنمية مواهبه بالإقبال والمعونة ،
ولكن الناس هنا في مصر لا يعرفون شيئاً من هذا حتى لأخص
نوابغهم وأخلص خدامهم .

فلو كان أحمد شوقي على خصاصة ولو لم يكن متصلاً
بقصر الملك لما عرفوه ولا سألوا عنه ولما اتجه في نظمه ذلك
الاتجاه . والناس في مصر لم يتغيروا عن زمن المتنبي أى منذ ألف
سنة ومنذ ألف سنة كانت العلوم العربية في ضحاها وروعتها
وشبابها وكذلك الآداب ومكارم الأخلاق المستفادة من الإسلام ، ومع
ذلك ما زال ذلك الرجل العظيم أبو الطيب المتنبي يطوف مشارق
العالم العربي ومغاريه في سبيل الرزق والكرامة حتى حط رحاله
بمصر ، ولم يكن للرأى العام قوة كالتى صارت له في أوائل القرن
العشرين ، فالتجأ مضطراً الى الرقيق الزنجى الذى شاعت الأقدار
أن تسلمه زمام الملك فى أرض مصر ، واضطر أبو الطيب أن
يمتدحه وينظم القصائد الطوال فى الثناء عليه وتعليل سواد لونه
وسودده على بلاد النوى ، الى أن قطع الأمل من رقدته ففرّ بليل
وشفى نفسه بهجائه والاستغفار من محنة مدحه .

وبعد ذلك بألف سنة جاء عبد المحسن الكاظمى الى مصر ،
وإن لم يكن من طبقة المتنبي إلا أنه لم يكن يقل عنه جاهاً وحسباً
وعلماً وأدباً وعفة وترفعاً ورجولة . وكان على عرش مصر أمير
يقرب الشعراء ويجيز الأدباء ويتخير بعضهم بطانة كما فعل أبوه

وجده من قبله وفيها فطاحل من رجال العلم والمال والسياسة والفقه والأدب والصحافة ، وفي فترة كانت فيها نصرة الجامعة الإسلامية والنهضة العربية ومع ذلك لم يلتفت الى الرجل واحد منهم ولم يبادروا الى نصرته ولم ينتفعروا بأدبه وأخلاقه ولم يحسبوا حساب هجرة مصرى الى العراق فيلقى فيها مايلقى الكاظمى فى وادى النيل ، وكان الرجل لبقاً فقد مدح مصر وأهلها عندما وطئت قدمه أرضها بدلاً من أن يمدح ملكاً أو أميراً لأنه يعلم أن الأحوال تغيرت وصار للأمم فى العصر الحديث ماكان للملوك والأمراء فى سالف الأزمان .

وعندما استقرت به النوى حذروه فى خبث وكيد أن لايمتدح أمير البلاد لأن امتداحه وقف على أشخاص معينين ، فنقر الرجل بطبعه من الارتواء على هذا الباب أو الدنومنه ضناً بكرامته وتهمة المزاحمة ، ولم يكن هؤلاء الشعراء من البطانة رجال مروءة أو نجدة أو قانعين بوظائفهم التى تدر عليهم المال ولا بالأعمال الخفية والمساعى الغامضة التى أمطرتهم ذهباً ، بل طمعوا أيضاً فى الاستئثار بالأمير سواء فى السياسة أو الإدارة أو الأدب . وقد قطن الأمير نفسه أن تشجيع شعراء أو أدباء آخرين يوغر صدور

هؤلاء ويشعل نيران الحقد فى قلوبهم وقد يكيدون له عند خصومه ،
وبذا تمكنوا من ضرب نطاق وحصار على القصر وعلى قلب الأمير
وفكره ، وعاشت الإمارة فى القرن العشرين الى سنة ١٩١٤ كائى
بلاط ملكى فى القرون الوسطى مصنعا للدسائس ومطبخاً للفتن
ومصدرا للفضائح التى تنتجها أعمال البطانة ، والأمير منها برىء
براعة الذئب من دم يوسف ، فقد كانوا هم أنفسهم يخونون ويؤذون
وينافقون ويطيعون كل هوى فى أفئدتهم حتى ضيعوه ، وبعد ضياعه
قلبوا له ظهر المجن ونالوا منه ولم يرثوا لحاله ، ليس هذا كل شئ
بل إنهم انضموا الى خصومه وتهربوا من لقائه ولو بالمصادفة فى
الأقطار الأوروبية ، فى حين أن دسّوا عليه أقاربهم وأصهارهم
ليسلبوه أموالاً باسم الإخلاص له والبقاء على الوفاء والولاء حتى
بعد أن أصبحت هذه الأشياء كلمات لامعنى لها وأوهاماً لا تنطلى
على طفل .

وفى وسط هذه المعمة من بداية وصول عبد المحسن
الكاظمى وهو غريب الوجه واليد واللسان وكريم النفس وحر الضمير
عفيف الخلق يكاد يكون على الفطرة العربية فائئى له أن يخوض
غمار هذه المعركة فى سبيل الشهرة والكسب بأدبه ، وقد ركب فى

طبيعته أنه لا يكسب بأدبه ولو صلبوه وقطعوا أوصاله ، فلم يتصل
بوزير أو أمير أو زعيم ، غير أنه لما كبرت كريمته المحفوظة بعناية
الله رباب التي رزقها حوالى سنة ١٩١٦ فى أضيق الظروف وأشد
الضنك نظمت الشعر الجيد وأنشدته فى بعض محافل الزعيم سعد
زغلول ، وكان مجيئها فاتحة بصيص من الخير لأبيها ، وأراد الله
أن يتم على يديها نشر ديوانه فى سنة ١٩٤٠ أى بعد خمس وثلاثين
سنة من تحرك هذه الرغبة فى قلب والدها الراحل . فكان يحفظ
منظوماته الرائعة فى صندوق من الصفيح ويندب حظه وكان وهو
شبه ضير يشعل مصباح الزيت بيده ويعد طعامه ويقضى حوائجه ،
وقد قضى أحد الأدباء المعجبين به أياماً فى صحبتته بمسكنه
الصغير فى شارع الكحكيين فلم ير زائراً غيره ، ولما نطق الصديق
المعجب بما يجول فى نفسه بعد الاستئذان والاستعطاف فى أن
يخدم الشاعر خدمة مادية هاج وماج وثار أنفة واعتزازاً بكرامته ،
فقد كاد إباؤه وشممه يكونان مرضاً مستعصياً وهذا مثل أعلى فى
النبل تحرص عليه الأمم وتعالجه بالحكمة والمحبة .

ونشر ديوانه سنة ١٩٤٠ وقدم له بكلمة بليغة السيد مصطفى
عبد الرازق وكانت بينهما علاقة طفيفة فيا حبذا لو كان السيد

مصطفى فى محنة الكاظمى وزير المعارف أو وزير الأوقاف . ولكن
نظار المعارف والأوقاف فى عصره كانوا من أبعد الناس عن تقدير
حقوق الأدب والضيافة ولو كانوا غير ذلك لبحثوا ونقبوا عنهم
بمجهر وتفقدوهم كما كان يفعل عمر بن الخطاب الذى لم يجد
الاسلام بمثله .

قد يكون لمعترض أن يسأل لم لم يعمل الكاظمى عملاً دنيوياً
يربح منه كالتجارة والزراعة والحياسة ؟ وهو سؤال لم يبق
عجيباً فى هذا الزمن كما لم يكن غريباً فى صدر الاسلام حتى أن
بعض الخلفاء مازالوا يزاولون أعمالهم بعد خلافتهم حتى نهام
الخبراء بواجبات الملك وخدمة الرعية .

الجواب بسيط ، إن أدب الكاظمى نفسه كان عملاً منتجاً فإن
الأمم لاتعيش بغير شعراء ومفكرين وكتاب وفنانين . وقد يستغرق
أدب مثله كل وجوده ومشاعره وقواه المادية والمعنوية فليس هو
وأمثاله بالعاطلين أو الكسالى أو المتواكلين ، والأمم التى لاتصل
بوحى منها الى إعاشة أمثاله خاب فآلها وخربت ضمائرهما وتهدم
بنيانها . أليس الشاعر المصرى يقول : وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا ، ولم نقرأ مثل هذا الشعر الذى

يحفظه عشرون مليوناً ولا يعملون به ، وأمامهم رجال من نوى تلك الأخلاق المنشودة لم يعيروهم لفتة كأنهم يظنون الأخلاق هنا «كصندوق العهد» الذى سلمه آدم الى شيث فأخفاه فى خزان مجهولة لا يصل إليها أحد الى يوم القيامة ! ..

وليت الشاعر النابغ قال لهم ماهى هذه الأخلاق التى إذا ذهبت ذهبت الأمم ولم يضر الإيجاز بشىء ضرره بهذا الشعر . ماهى تلك الأخلاق أيتها الأمة المصرية الكريمة ؟ والى من تقصدون عندما تقولون « ماعندناش أخلاق » ماهو هذا الإكسير ؟ ما حجر الفلاسفة الذى تسمونه أخلاقا ؟ وأنت أيها الطبيب المداوى أى علاج وصفت للمرضى بهذا الإيجاز المعجز ، وأى نموذج من الرجال قدمت لنا من فجر التاريخ الى الآن وضربت الأمثال بهم لتلك الأمة الراقدة العلية ؟! قد يعتذر عن الشاعر بأنه يشير ولا يسهب وعلى علماء الأخلاق والاجتماع أن يشرحوا ويفسروا بالتطويل . ولكن أين هم ؟ وهل وجدوا وإن وجدوا هل تمكنوا من العيش والتعليم ؟ إن مجرد وجودهم داع لمحاربتهم والقضاء عليهم والأمثلة لدينا حاضرة ولا جزاء لهم إلا شفقة السماته ، وأشد من ذلك المأ وأعظم مصيبة إضافة النقائص الموهومة أو المكذوبة إليهم وهم منها براء ،

والسبب فى تخصيص أهل الفضل بإذاعة نقائصهم وعدم إقالتهم إياها والتلبيس والإفتراء عليهم مهما كانت محققة أو موهومة محتملة ، أن النفوس فى الشرق العربى ولاسيما فى مصر مجبولة على المساواة والمباهاة ولا تحب لغيرها تفوقاً عليها فمهما وجدت سبيلاً للتنقيص من كمال الكاملين ولو تلبيساً مقبولاً سلكته تنقيصاً للكمال وطلباً للمساواة بحساب الإمكان بخلاف الناقص فى نفسه فإنه لا حاجة الى تنقيصه .

وقد عاشرت الكاظمى أمداً فلم أجد إلا صفات الفضل والكرامة والعفة فضلاً عن نبوغه الذى أوغر صدور أعدائه الذين أغروا به حتى أرباب الصحف ، فامتنع بعضهم عن نشر شعره رحمه الله رحمة واسعة ، فضلاً عن تعطيل ديوانه فى وقت كان فيه الطبع والورق أرخص الأشياء وأضالها ثمناً وأقلها كلفة . كان الكاظمى يدرك ذلك كله ويعلم أسبابه ولا يرى له مخرجاً إلا الصبر وقد ضاقت به العراق وبرقت أشعة مصر فى خياله وأمامه مثل المتنبى ولكنه غامر :

يقيم الرجال الأغنياء بأرضهم

وترمى النوى بالمقترين المراميا

فوجد فى مصر مايجده أهل العقل والفضل والنباهة من
الآلام العقلية التى تلزمهم وهى عذاب وحسرة وحيرة ، فلم تضعف
أولئك من صلابة عوده وقوة احتماله وشدة صبره ولكنها بلاريب
عطلت كثيراً من مواهبه - وإن قيل إن الآلام تنتزع المواهب - فقد
روى عن حافظ إبراهيم أنه قال « اعطنى من الرفاهية مايسبغ فيه
فلان أو علان وانظر أى الشعر أنظم لك . ولو كان فلان أو علان فى
موقفى انظر هل كان يجيد نظم شطرة !؟ » .
ولكن سير الفلك المدار لم يشأ حدث إحدى هاتين
التجربتين .

نحن لانملك أن نحكم على ماكان يستطيعه الكاظمى لو
تغيرت ظروف حياته ، ولكن تقدم فنون النقد سمح للنقاد الغربيين
أن يحكموا على الإنتاج الشعرى والفلسفى لرجال قضوا نحبتهم فى
مقتبل العمر أمثال جيو وأندريه شينييه ، كما حكم العرب على
مستقبل ابن المقفع وبديع الزمان والشابى وأحمد العاصى والإنجليز
على شيلى وكيتس وشاترتون وبروك وقديماً قال الشاعر العربى :
وإذا رأيت من الهلال نموه

أيقنت أن سيصير بدرأ كاملاً

وكما يكون الموت عائقاً حتمياً مطلقاً عن الإنتاج ، كذلك يكون الموت المعنوي معطلاً لمواهب الموهوبين بسبب تشوقهم وتشوقهم الى المكارم والمعالي ومد أعناقهم نحوها ، ولا شك أن الشوق الى المشوق مع عدمه وعدم التمكن من تحصيله وعدم الاشتغال بما يلهي عنه عذاب مذاب ، ولا شك أن عدم الحظ غطاء وستر على محاسن النابغ وكمالاته النفسية وأدواته ومعارفه حتى أن حاله تسرى الى نطقه وإنتاجه ومقاصده ، فإما يغفل عن محاسن كلامه ومقاصده ولا يعبأ بها ويعرض عنها ، وإما أن يصرف كلامه عن ظاهره بأوجه من التأويل ، وإما أن لا يفهم مراده منه ، وإما أن يدعى عليه غير مراده ، وإما أن يدعى فساد قصده .

وتطبيقاً لهذه القاعدة سمعنا بعض الناس يهمنسون بعدم استحقاق هؤلاء المظلومين لعناية المخلصين في محبتهم والإعجاب بهم ، وكان هذا من الثمار المريرة للزرع المسمم الذي غرسه أعداؤهم وبعض الناس لا يدري ما يقول فيهرق ويهذى ، وبعضهم مأجور للأعداء وهم يعلمون أن كثيراً من أهل مصر لا تبلى في أفواههم فولة ولا قمحة ولا عدسة فيزعمون المزاعم .

سمعت شاعراً مصرياً شهيراً كان مغضوباً عليه من زعيم

أشهر فى منقاه يقول لرجل خفيف العقل لقد جن فلان (والعياد بالله) جنوناً مطبقاً حتى قيدوه بالسلاسل . أرجوك لا تذيع هذا الخبر !! . فلما انصرف الرجل الخفيف العقل سألت الشاعر العظيم أحقاً ماتقول ؟ قال أبداً إنما أقول ما أتمنى . قلت ولم رجوت صاحبك أن لا يذيع الخبر قال ليكون هذا أدعى الى شقشقة لسانه فينتشر الخبر ، بسرعة البرق . بهذه الوسائل وأمثالها وأخبت منها كانوا يحاربون الكاظمى وأمثاله . وغنى عن البيان أن الزعيم عندما عاد من منقاه كان الشاعر فى مقدمة الذين استقبلوه بقصائدهم الرنانة ، لأنه أصبح صاحب الحل والربط فصار بذلك معبوداً للشاعر وذويه^(١) .

ومن عجيب أمور الكاظمى أنه لم يبتل قط بالنقائص النفسية التى قلما ينجو منها الأديب الغريب المحروم من الحظ كضيق العطن والنزق وفساد الطوية والنفاق والحقْد والحسد والانتقام أو حب زوال النعم عن خصومه بعد أن تأكد عداوتهم من ألصق الناس بهم ، كالمرحوم الشيخ على يوسف الذى لم يخف عنه شئ ولم تُسمع منه غيبة فى أحد ولا طعن فى عرض ولا غرض من أقدارهم ولا غوص

(١) يبدو أن الشاعر هو أحمد شوقى والزعيم هو سعد زغلول .

على مساوىء خصومه أو عمل حيلة فى الاطلاع على عوراتهم .
وكان يتجنب هذه كلها طوال حياته وليس فى طبعه شىء منها
مطلقاً حتى لو حاول الانغماس فيها .

سمعت صديقاً له يقول لو أظهر أنيابه وأظفاره وانتفع ببيانه
فى النيل منهم لخافوا جانبه وتنحوا عن طريقه كما فعل فلان
السورى وفلان المغربى فإن هؤلاء يخشون ولا يستحون ، وليس هنا
مجال التصريح بالأسماء والأعلام وسرد الحوادث فإنه من أخص
فصول التاريخ الأدبى للواعين ، وقد أعطى التاريخ للكاظمى بعض
حقه بعد موته على يد ابنته .

وبعد . . . فقد يسأل البعض عن إسهابى فى دراسة
الكاظمى وقد كان ضيفاً عراقياً ولم يكن مصرياً فاقول إن هذا
المبحث غير قاصر على جنس بعينه أو على وطن خاص ، لأن الأدباء
والمفكرين مواطنون فى العالم كله ومواهبهم وشخصياتهم ملك
مشاع بين الأمم كلها حتى ولو كانوا لا ينطقون بألسنتها . وقد
يكون الكاظمى - وهذا من عجيب المصادفات - أقرب الى مصر من
غيره من أدباء العربية ، وقد أشرت الى علاقته بالمرحوم سعد زغلول
فى حياته ، لأن سعداً كان يحب المتصلين بالمرحوم الشيخ محمد

عبده ويعتبرهم إخوانه أو أبنائه في الانتساب للإمام ، وقد بكى
الكاظمي على سعد زغلول بقصيد رنان ملاً من ديوانه ست
صفحات .

ويعتبر بعض الأدباء الكاظمي شاعراً مصرياً ولا عجب ، فقد
عاش في مصر أكبر شطر من عمره وقد أوتته ضفاف النيل أطول
مما أوتته ضفاف دجلة والفرات ، وذكر الرصافي ذلك عندما رثاه
فقال :

فيا عجبا بكتك وأنت ميت

بلاد ضيعتك وأنت حي

ولكن العراق لم تضيع الكاظمي ولكنه هو الذي لم يستطع
الحياة هناك ، وقد كان نصيب الزهاوي أن قلد الكاظمي وأوى الى
مصر أمداً ، ولكن روابط الزهاوي في العراق كانت أقوى من روابط
الكاظمي . أما الرصافي مد الله في أجله فقد حماه وأنقذه نوع
من القدرة على الكفاح والصمود للكوارث لا تقوى عليه أفئدة
الشعراء جميعاً وهي القدرة التي كانت تعوز الكاظمي .

فالرصافي جرىء في المطالبة بحقوقه وشجاع في إلزام

الناس بتقديره واحترامه وصريح لدى الوقوف أمام الكبراء حتى ولو كانوا ملوكاً وأمراء ، ولعل هذا راجع الى اشتغاله بالسياسة من بداية أمره ، فقد سافر فى شبابه الى مقر الخلافة العثمانية وخالط الوزراء والكبراء وتفتحت عيناه الى مواطن القوة والضعف من الأمم ، فنزعت التجارب جراثيم الخوف والخجل من ثنايا صدره وعرف كيف يواجه الحوادث والرجال ، وكان الكاظمى خلواً من كل هذا ، وفى الوقت الذى أخذ الرصافى سمته الى اصطمبول ليحظى فيها بألوان من السعادة ، ولا عجب فقد كانوا يصفونها بدار السعادة "Porte de felicité" كان الكاظمى أخذاً سمته الى مصر التى كانت فى نظره دار السعادة العقلية فأضرت به الرحلة ولم يتذوق إحدى السعادتين .

وهناك ناحية ذات شأن جليل فى حياة الكاظمى وهجرته من دجلة والفرات الى النيل ، وهى أنه كان أول رسول سلام وأدب وإخاء وألفة واتحاد بين العراق العربى ومصر فى العهد الذى كانت فيه العراق ولاية عثمانية ومصر « محمية مقنعة » وقد أخبرنى أنه كان ولفيفاً من أذكىاء العراق يسايرون ويتتبعون الحوادث المصرية

بيقظة لا نظير لها ويرنون إليها كما يرنو الموسويون الى أرض
الميعاد ، وصاروا كلما تقدمت الأيام يلتفتون الى مصر التفاتة
التشوف العارم الى مصير الشرق العربي ، وكان بلاؤه قد استفحل
بأهوال العبودية ، وإلى مصير الأدب العربي وقد أدركته الكهولة
المشوبة بالخنوثة على أيدي الشعراء أهل الطراوة والكتاب المرتزقين
المذبذبين ذوي الأغراض . لم يكن في وسع شاب عراقي يهوى
مصر والنيل ويود التعاون في إنهاض الأدب العربي بقادر على
الهجرة إلينا في فجر القرن العشرين ، ولذا تعدّ هجرة الكاظمي
عملاً مجيداً لم يلق جزاءه وصوتاً سامياً لم يتردد له صدى إلا في
بعض الأفئدة ، وما هي الحوادث والأيام تؤيد فراسة الكاظمي
وتثبت صحة رأيه فقد تحررت العراق وتحررت مصر وارتبطت
الدولتان منذ عشرين عاماً بروابط الإخاء والمودة وتبادل الثقافة
والتعليم والأساتيد والتلاميذ وصارت لكل منهما سفارة أو وزارة ،
وفي السادة الكبراء نسب ومصاهرة وكانت مصر ملتقى ملك العراق
وزرائها ، فماذا أفاد الكاظمي قبل موته وهو السفير الأول
والرسول الأول لم يقصد الى مصر بقصد التجارة أو الكسب ولكن

لأجل المثل العليا ، فكان نصيبه الإهمال والنسيان من الدولتين إلا
بعد موته حتى قذف الرصاص في بلاده بتلك العلة الدفينة التي
استفحلت واستنسرت وضحت بعظماء الأفراد في سبيل صفار
الشهوات في موكب حاشد من الجهل والغفلة وأغوال الأحقاد
والشتمات واللؤم والمكايد :

فيا عجباً بكتك وأنت ميت

بلاد ضيعتك وأنت حي

ويا عجباً ضيعة حياً بلاد لجأ إليها واستوطنها واستقبلها
فرحاً مستبشراً وقطع في سبيل الوصول إليها خمسين يوماً على
ظهور الإبل وعلى متن البحار ، قدفنته وهو مملوء بالحياة وشيعت
جنازته وقلبه نابض بالأمل وقضت عليه وما زالت الدماء تجري في
عروقه .

(٨) أصحاب المواهب العقلية

يتحدث المتحدثون ويكتب الكاتبون في التفريق بين نوى المواهب العقلية ، فيقسمونهم الى فيلسوف وكاتب وشاعر وخطيب وعالم . وفي الحق إنه تقسيم تعسفى ، لأن هؤلاء الموهوبين جميعا يعتمدون الى طريقة واحدة فى التعبير عن أفكارهم وهى الكلمة ، الكلمة فى الحديث والحوار كما فعل سقراط ، والكلمة فى الخطابة كما صنع قس بن ساعده وبركليس وأبو بكر الصديق ، والكلمة فى الدرس كما كان يفعل أرسطو وأفلاطون وحسن البصرى وجمال الدين الأصفهانى ومحمد عبده ، والكلمة المكتوبة المخطوطة أولاً والمطبوعة أخيراً كالجاحظ وأبى الفرج الأصبهاني وابن المقفع وبرجسون وأناطول فرانس وأوسكار وايلد ، والكلمة المنظومة كما فعل المعرى ودانتى والمتنبى والبحتري وشوقي . فوسيلة التعبير عن الروح والنفس والعقل والذهن واحدة ، ولكن ألوانها مختلفة ودوائر التفكير تختلف ولا فرق هناك بين الحكيم والشاعر والكاتب والخطيب ، ففي أسواق البيع والشراء التى تقام فى الحواضر والبادى تجد باعة الخزف والمصوغ والأنعام والخضر والفواكه والملابس والأحذية والبقول والكتب والجلود ، وبعضهم يتوسط

السوق والبعض يجلس فى جوانب السوق ، وبجانب العطار الذى يعرض قوارير العطر والروائح الزكية يقف على مقربة منه بائع الطيور والسماك واللحم والبصل والثوم والعسل ، كل هؤلاء باعة وتجار يعرضون بضاعتهم . وكذلك كل الذين ذكرنا من أصحاب المواهب يعرضون بضاعتهم ولكن كلهم بائع وعارض . فبيدبا الفيلسوف الهندى يعرض الحكمة فى العدل والمساواة والإحسان للشعب ، وفرديك نيتشه الألمانى يعرض ثورته وسخطه على الحياة الحاضرة ويقذف بسهام نقده النظم والعقائد المعاصرة ويشرح رأيه فى صورة الحياة للمستقبل ، وداروين ينادى بقدرة الطبيعة على الخلق والتكوين عن طريق الترقى والنشوء والتحول والتطور .

وما يصدق فى الحكم على أحدهم يصدق على غيره بشرط أن يكون فنّ التعبير عن أفكارهم هوى متحكماً فى نفوسهم وغالباً على مشاعرهم بجانب أعمالهم التى يرتزقون بها ، وقد تقوى الملكات العقلية فينقطعون لها ، ومازال لفيث من علماء العرب يحملون أسماء صناعتهم أو صناعة آبائهم كالطبّاخ والصائغ والغزال والحلاج والحريرى والمدرس ، وفى أوروبا يحتفظ التاريخ

الأدبى بحقيقة صناعتهم ، فقد كان سباينوزا صانعاً للعدسات وروسو نساخاً موسيقياً ودو هاميل طبيباً ، ومعظمهم اشتغلوا بصناعة التعليم أمثال أوجست كومت وأناطول فرانس وإرنست رينان ، وكان شكسبير وموليير وجيترى من رجال التمثيل ، وكان إيصوب رقيقاً زنجياً ويتميز كل واحد منهم بقوة الذاكرة وهى شرط أساسى ، وسرعة الحفظ كما ذكروا عن ابن سينا والمعري ، وسمو العقل وترفعه عن سفساف الأمور التى تنزل بصاحبها إلى الحضيض ورقة الجانب لأنها تحببه إلى الناس وتدعوهم إلى الإقبال عليه ، وقد تزداد هذه الخلقة فتصير جاذبية شخصية عظيمة كالتى وصف بها سقراط وجمال الدين وأوسكار وايلد وأبونواس ، ويضاف الى تلك الصفات أن يكون الرجل محباً للعدل والعفة والاستقامة ، جلدأً صبوراً ثابت الجنان بعيداً عن مغريات المال والشهرة ، وقد يكون حذوراً من المخاطرة بحياته ليتمكن من أداء واجبه وتبليغ رسالته التى يلهمه إياها. صوت ياطنى ، وقد يعينه على إتمام عمله شعوره بحقارة البيئة التى يعيش فيها سواء أكانت دولة صغيرى أو شعباً منحطاً أو حكومة ظالمة ، ويقدر عظم الرجل تكون نظرتة الى من حوله نظرة استصغار ، فقد كان نيتشه يحتقر

الألمان المعاصرين بصفة عامة ، ولكن شوبنهاور كان يشتم الفلاسفة والعلماء ويصفهم بأقبح الصفات ويقول لهم فى مواجهة قاسية ومجابهة أليمة أريد أن أعلمكم شيئاً وأنتم لاتعلمون ، وقد تكون الآلام الناشئة عن داء فى البدن أو شعور بدنو الأجل أو حرمان دائم دافعاً أقوى للتعبير أو محسناً للتعبير ، فعدم الرضى من العناصر الأولى فى إبراز المواهب ، لأن الرضى قاتل وقبول الأشياء على ما هى عليه قاتل . وأول النعم التى يعود بها عدم الرضى موهبة النقد الذى يؤدى الى التقدم ، النقد فى الأدب ، والنقد فى الحياة الاجتماعية ، نقد القائد الحربى لخطة عسكرية ونقد الصانع لصنعة غيره ونقد الفنان ونقد الاقتصاد ونقد العقائد ، وقد أوصلنا النقد الى ذكر الفنان وهو الآخر فى صف أرباب المواهب العقلية المميزة ، فليست الكلمة وحدها هى التى يتخذها العقل للتعبير عما يشعر بالحاجة الى التعبير عنه . فهناك أيضاً الموسيقى الذى يعبر بالأصوات التى يحكمها بالأنغام سواء أكانت الأصوات البشرية التى تنطق بها الأوتار أو المعادن أو النفخ فى المزمار أو الناي . وهناك الفنان بالتصوير والتمثيل ، فالمصور والمثال كلاهما يعبر عن أفكاره بالألوان والأشكال المحفورة فى

الأحجار والمعادن والأخشاب والعاج.

كل هؤلاء أسرة واحدة ، وإذا كانت الشخصية الموهوبة مكونة من العقل والإرادة ، فنصيب هؤلاء من قوة العقل مضاعفة ، ويتميز هؤلاء بحب الاستطلاع وشهوة المعرفة وممارسة الأعمال العقلية بسرور يعدل سرور البخيل في جمع المال والعاشق المحترف لدى الغزل ، ويتوج هذه الحالات المخالفة للعادة شعور الموهوب في الأدب أو الحكمة أو الفن بخيبة الأمل في الحياة الدنيا ، ويرى المتأمل أن هذا الشعور لا يتأتى لأحد إلا لدقة الإحساس وحدة الذكاء وشدة التفكير ، مواهب باطنية وظروف خارجية موزعة توزيعاً دقيقاً ومقسمة تقسيماً نسبياً على طريقة خاصة ، مثلها مثل العناصر والعقاقير تنتج لوناً خاصاً من المواهب وتتخذ التعبير وسيلة للانتاج بالكلمة والصوت والمادة ، أى فرق بين تمثال من صنع ميكالانج كموسى أو زهرة ميلو أو المفكر لرودان وبين قصيدة للمتنبى أو خطبة للإمام على أو كتاب لارنست رينان أو محاورة سقراطية أو درس فى علم الاجتماع لسبينسر أو أويرا من فاجنر ؟

لا شىء ولا فرق البتة ، إن كلا منها يحدث شعوراً بالجمال

والجلال والسرور ويضيف الى ذهن الناظر أو السامع نصيباً من المعرفة ، وكذلك الدور الذى يمثله مونييه سولى والدور الذى يغنيه عبده الحمولى والرقصة التى ترقصها أيزيدورا دنكان والنكتة التى يطلقها جورج برنارد شو .

ولسنا فى حاجة الى تعريف شىء من هذه المواهب وأربابها فهى معروفة للكافة ، ولكن الذى يفرق بينها هو التقدير الكمى لا النوعى ، والميل الى ناحية أو شعاع من أشعة الطيف العقلى . إن الفلاسفة الذين اشتهروا فى العالم كانوا فى حقيقة حالهم كتاباً من الطبقة الأولى ، أما درجة التفكير فتختلف ، حتى الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين جاءوا برسالاتهم مكتوبة وهى تعد فى الطبقة الأولى ، وقد لجأ بعضهم الى الشعر والغناء كمزامير داود وحكمة سليمان وسفر أيوب وخطبة المسيح على الجبل ورسائل تلاميذه ، والتوراة نفسها أسفار تاريخ وأدب وأسرار عائلية وقصص من الحياة وتراجم ملوك وملاحم ، ومنها الى إلياذة هوميروس خطوة واحدة . فما قيمة مذهب داروين إن لم يدونه فى ثلاثة كتب ؟ وما قيمة تاريخ مصر إن لم نقرأه على الأحجار وفى سجلات البردى ؟ وما هى أديان الهند والفرس إن لم تدون فى أوبانيشاد وافستا ؟

ومراثى زينوفون ومحاورات أفلاطون ودفاع سقراط ؟

وغاية الفروق أنك ترى فى بعض تلك الكتب البحث فى جواهر الأشياء وروحها ، وفى بعضها تحليل النتائج بأسبابها ، وفى بعضها محاولات للوصول الى الحكمة والفضيلة وإرشاد النفوس الى الخير المطلق وهو المثل الأعلى ، وفى بعضها محاولة موفقة أو غير موفقة فى حل ألغاز الكون أو تفسير الحياة الإنسانية وشرح غاياتها وتعليل الخلق والبحث عن وجود الخالق . بعضهم يقنع بالنظر فى الجوهرة التى أمامه وتقديرها وفحصها ووصفها وبعضهم لا يقنع إلا بالكشف عن المنجم الذى خرجت منه تلك الجوهرة وأصل تكوينها وتاريخ إخراجها . والأول يعتقد أن الفحص عن الجزء وصول الى الكل ، والثانى يرى الكمال فى البلوغ الى المصدر الأول أو الاقتراب منه ما أمكن .

ولكن أليس الانسان هو الذى ترقى من الجهالة المطلقة الى الدين ومن الدين الى الفن ومن الفن الى العلم حتى وصل الى ما يظنه الذروة فعاد من جديد الى الدين يبحث عن الروح وثبوت وجودها وخلودها ؟ لقد بدأ بالفلك وانتهى بالذرة والكهرب فلما اكتشف العلاقة بين النظم الشمسية ووحدتها فى الكون اللانهائى

وبين الذرة ، عاد أدراجه الى الروح التي انطوى فيها العالم الاكبر ،
وفى هذا المزيج الأعظم تتساوى تعاليم لأوتزه وكنونفوس وإلياذة
هوميروس وشاهنامة الفردوسي ومؤلفات كوبرنيكوس وتتحد وتتنظم
بلا صعوبة ولا مشقة ، ولا نقول إن الذي لا يرى هذا الرأي جاهل أو
عاجز ، ولكن نقول إنه حائر أو تائه ولا بد للحائر أن يهتدى ولا بد
للتائه أن يعود الى مرفأه .

وكما أن فى الكون الذى نسميه سماء نظاماً شمسية لها
شموسها وأقمارها وسياراتها ومذنباتها وكواكبها ذات الأحجام
المتفاوتة ، كذلك بين الموهوبين فى الأدب والفن والحكمة والشعر نظم
إنسانية بعباقرتها ونوابغها وأواسط الناس فيها ، يظهرون فى
فترات مختلفة ويتعاصرون ويتعاشرون ويتقاربون ويتنافرون مجبرين
مسيرين رغم إرادتهم . يوجد الرجل العظيم مثل سقراط وهو
شمس فتحيط به أقمار كارسطو وأفلاطون وزينوفون ، ويرسل الله
نبياً كمحمد عليه الصلاة والسلام وهو شمس تحيط به شمس
وأقمار وكواكب كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وبقيّة صحابته ، ألم
يقول: أصحابي كالنجوم الزاهرة بأيمهم اقتديتم اهتديتم ؟ . عندما
يحين الحين ويؤون الآوان تلقى طائفة من المخترعين وقد يعمل كل

منهم على حدة وانفراد ولكن أعمالهم تتفق فى منشأها ونتائجها
كما حدث فى الكهرباء واللاسلكى والفونوغراف والتليفون ثم
السيارة والطائرة ، ومثل تلك المجموعة الباهرة من أدباء القرون
الثانى والثالث والرابع الهجرى ، ومثل تلك الجماعة البديعة من أدباء
القرن التاسع عشر ولا سيما فى أواخره . إن مجرد استعراض
أسمائهم فى فرنسا وانجلترا وألمانيا وإيطاليا ومصر وتركيا كفى
بتأييد نظريتنا . كل رسالة دينية ترمى الى تخليص الروح وإنقاذه
من هموم الدنيا ومشاغليها وإشعاره بالمثل الأعلى الى هذه الغاية
يرمى البوذى والمسيحى والمسلم ، والمظهر السامى لهؤلاء بعد الكتب
المقدسة ورسالة الأنبياء حياة المتصوفين وكتبهم كمحى الدين بن
عربى والحلاج والغزالى والشعرانى والسهروردى والقشيرى ، وكذلك
ماركوس اوريليوس وسانت اوجستين وشوبنهاور ومؤلفات روسو
وأفكار باسكال .

كل واحد من هؤلاء وغيرهم ألوف منهم لا يشبع ولا يرتوى
فى البحث عن الحقيقة فيجرى وراءها ويقضى حياته ويضحى
بسعادته فى سبيلها ، وقد لايهمه نجاح سعيه بقدر مايهمه التفهم
والتدوين والشرح والتفسير ، والكثرة منهم تعانى وتشقى وتذل

وتسجن وتنقى وتموت ولكنها لا ترتدع ولا ترعوى ولا تمتنع ، وقد يكون لهم معاصرون يسلكون خططهم ويتتبعون خطاهم ويأتى بعدهم من لا يتعظ بسيرهم ، وقد يرى محنتهم أصحابهم وتلاميذهم فيتلذنون بمصايرهم ويسعون الى حتوفهم بأقدامهم كما وقع لـجيورولومو سافونارولا فى ايطاليا فى القرن الخامس عشر ولأتباعه وكما وقع للحلاج وأصحابه ، فقد لفق له حامد بن العباس وزير المقتدر العباسى سنة ٣٠٩هـ قضية للإيقاع به ويمن يقول قوله فأحضر أبا العباس أحمد بن محمد بن عطاء وكتب الحلاج اعتقاده فسأله الوزير عما قاله الحلاج فقال من لا يقول بهذا القول فهو بلا اعتقاد ، وكان الوزير يريد أن يكون أبو العباس أحمد شاهد إثبات على الحلاج فقال له :

ويحك ! تصوب مثل هذا الاعتقاد ؟

فقال أبو العباس : مالك ولهذا ؟ عليك بما نصبت له من أخذ أموال الناس وظلمهم مالك والكلام مع هؤلاء السادة ؟ (يقصد الى الحلاج وأصحابه) ، فأمر الوزير بضرب شذقيه (أى الصفع على وجهه) ونزع خفيه وأن يضرب بهما رأسه فما زال يفعل به كذلك حتى سال الدم من أنفه وأمر بسجنه (يعنى الحبس بعد تعذيب

الشاهد) فقل له :

- أيها الوزير إن الرأي العام يهيج بهذا ، فحمل الى منزله ، وقتل الحلاج قبله بعد أن ضرب نحواً من ألف سوط وقطعت يداه ورجلاه ثم أحرقت جثته بالنار ونصبت يداه ورجلاه ورأسه أياماً على جسر بغداد .

وهذه الحادثة تبين لنا عن جانب من أخلاق هؤلاء الأفذاذ في جميع نواحي الفكر وهي الشجاعة المعنوية والجسارة المدنية حتى ليستهدف أحدهم للعباب والموت ولا يحيد عن رأيه مهما كان هذا الرأي قريباً أو بعيداً عن سعادتهم . أما منفعتهم المادية التي يقتل الناس عليها والتي من أجلها أبدعوا نظرية تنازع البقاء وبقاء الأصلح والكفاح في سبيل الحياة والنجاح في الحياة ، فليست في الدرجة الأخيرة من حساباتهم ، بل هي معدومة بتاتاً كما لو كان أحدهم أعمى أو أصم أو مقعد بالنسبة للنظر والسمع والحركة . ونحن لا نقول بخطأ هذه النظريات في العصر الحديث والحضارة الحديثة التي تتردى ، ولكن نقرر الواقع والملموس في جبله هؤلاء الأفراد ، وليسوا أيضاً بطلاب مجد أو شهرة كالتى ينشدها القواد والساسة والطغاة والمتصنعون من الأدباء ، فهذا أبعد الأشياء عن

أفكارهم . وقد عرض على كثير منهم أموال الدولة ومباهج الحياة
والمناصب العالية التى يفرح بها أطفال الرجال كما يفرح الأطفال
باللعب ، ولكنهم أعرضوا عنها وقابلوا عارضيتها بابتسامة ساخرة ،
وقد رأينا المتصنعين والمنتفعين والمخادعين من رجال السياسة
ينطون تحت ألقاب الممالك وأوسمة مايسمونهم الشرف والأموال
المكتسبة من أية الطرق ، فيصبح هذا وزيراً وذاك لورداً أو كنتاً أو
باروناً ويقضى حياته فى مظاهر الفخامة والفخخة الكاذبة وينسى
ماضيه ويطلق مذهبه ودينه وملته ومبدأه ، والناس حوله يعجبون ولا
يجراون عليه ويتملقونه ولا يصفعونه ويتألفون إليه ولا يدوسونه
بالنعال، لأن عقلية الإنسانية الدماء وطغمة الأشرار هكذا مصنوعة
وهكذا جبلت ، وهكذا عجنت بماء المطامع والهوان . وبينما يكومون
المجلدات لتدوين الجرائم التى اقتترفها هؤلاء المتقلبون والظالمون
ومهرقو الدماء كبونا برت وقيصر والاسكندر وتيمور لك واتيلا ،
تراهم يقنعون بأسطر معدودات لتاريخ هؤلاء العظماء الذين خدموا
الإنسانية .

وإنك لترى أمماً بأسرها فى هذا العصر غارقة فى بحار
الغفلة والأثرة ، بل فى محيط من الجمود العقلى ، فكيف تقرب إلى

أذهان بنيتها بعض الحقائق التى تقوم عليها حياة الفكر فى
العالم ؟ .

(٩) علاقة المعاصرين بالتوايح

إن شباب مصر منذ أمد طويل ، على ما فيهم من سلامة
النفس وإخلاص الطوية - على حد قول بعضهم - كان لأغلبهم
ما يدفعهم الى المضى على ما وجدوا آبائهم عليه من طلب الوظيفة
بمجرد إتمام الدراسة الابتدائية أو الثانوية ، ومن استطاع
فالدراسة الجامعية حتى إذا ظفروا بها آثروا الراحة والدعة ، وإن
كانوا من أبناء الأعيان وأولاد الذوات عكفوا على اللهو واللعب
والهزل والشهوات ولم ينفذوا فى الحالين من الحياة الى صميمها ،
ولم تشغلهم شؤون عامة أو أمور عقلية ما شغلتهم أمورهم الخاصة
وبذويهم وأصدقائهم ، وهؤلاء الناس اذا شبّوا على الجهل وحب
الذات شابوا عليهما . فلم يفتح أحدهم كتاباً ولم يتدبر بحثاً ولم
يتعب نفسه فى فهم مسألة ولا قضى ساعة فى تأمل خوفاً على نظام
الهضم . وحتى الذين يقتنون مكتبات خاصة جعلوها للزينة وهم
أندر من الكبريت الأحمر ، وقد يبقى الكتاب عندهم عشرات السنين

بكرأ لم تفض أوراقه ولم تقطع أطرافه فلم يدروا مآبه وقد يكونون
أحوج الناس إليه ، ولم يتبعوا فكرة ولم تلفتهم طرائف العلم والأدب
بل تراهم عواماً وأميين حقاً وهم أعيان وكبار حكماً وتقليداً ،
يصبحون فيأكلون ويمارسون الأعمال تصويراً لاتفكيراً ولساً لا
فحصاً وهواية لا دراية وهم لا فهما ، فإذا شارفت الظهيرة
اندفعوا الى موائدهم يأكلون أكلاً لماً ويتفننون في الطعام وهو ما
يتقنونه حق الإتيقان ، ثم يأوون الى مخادعهم فيقبلون ويتخمون ثم
يتيقظون كالمشدهين فلا تفيقهم إلا المنبهات والماء البارد ، ثم
ينحدرون في أجمل زينة ومازالوا يتثابرون كالمخدرين ولهم أبدان
متورمة وبطنون منتفخة وأوداج بارزة وأقفية غليظة تخفى وراءها
عقولا فارغة أو مشغولة بالسفاسف وقلوباً قاسية لايتعدى شعورها
تدبير ذلك اللحم المترهل وذلك الشحم المتكدس .

هذه هي حياة الجسد الذي يتحكم فيهم ويسوقهم سوق
الأنعام في طريق شهواته المعادة ، وهذه فلسفتهم المشيدة على
أمثالهم السائرة « يارب نفسي » ، « اسألني عن حالي » ، « من
بعد راسي ما طلعت شمس » ، « إن جاك الطوفان حط ولدك تحت
رجليك » ، « شيلني وأشيلك » ، « كل واحد لنفسه والله للجميع » ،

«أحييني النهارده وأمتنى بكره» ، بفلوسك الحلوة .. على العلوة ،
« للصاحب على صاحبه .. وشهادة الزور ! » ، « اللى له ظهر
ماينضربش على بطنه » ، « يابخت من كان النقيب خاله » ، « خير
ما عملنا شر جانا منين » ، « على قلبها لطولون » .

وعليك أن تستمع الى أحاديثهم فى بيوتهم وفى مقاهيهم
وحاناتهم وعلى موائد لعبهم فى أفراحهم ومآتمهم لتحكم على قليل
من كثير .

فكيف لهؤلاء أن يتذوقوا الأدب والفنون والحكمة ، وهؤلاء هم
ال جماهير والرأى العام الذين تعرض عليهم بضائع العلماء والأدباء
فيتهافتون على انتقاصها ، وإذا وصلت الى أيديهم مجاناً ألقوا بها
فى غير اكتراث ولو سمعوا سيرة عالم أو أديب ، ولم يجدوا
مايلذعونه به من ذبانهم أو أنيابهم الخازنة لسموم ألسنتهم كان
أفضل مايقولونه « بالله فضونا من السيرة دى » لينغمسوا فى حياة
الغيبة والنميمة وأكل لحم بعضهم بعضاً وليتهالكوا فى المباحاة
والتفاخر بالماكل والمشارب ووصف الأطعمة والأنبذة وعلاقة الأجناس
وهو موضعهم المختار وحديثهم المفضل وفكاهتهم المصفاة التى
لا تمل ، وفى الدرجة الثانية بعدها النكتة البارة التى تعقبها القهقهة

التي لا يجيدها كائن في العالم حتى ولا القردة . وما يبيتون عليه
يصبحون به وهكذا الى آخر الدهر . فما أخذوا شيئاً أخذ الجد ولا
وقروا ما يستحق التوقير ولا رحموا ولا تدبروا ولا أفاقوا ولا فقهوا .
ولو صح قول الرسول إن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا فلا يصح
على هؤلاء لأنهم لن ينتبهوا مهما دق ناقوس الموت في آذانهم
الصماء ! .

لم يتذوقوا شعر شاعر إلا تقليداً ولم يرووا شعراً إلا تفاخراً
وما عرفوا قدر فرد إلا ووراء هذه المعرفة نفع يسعى كالأفقى ينساب
من جحور أنفسهم المظلمة الى أقدام ذلك الفرد ، فإن لم يصادف
هواهم فعدّوهم الأكّد وهدفهم الذي يحكمون رمايته وخصمهم الذي
يتعمدون تحقيقه وزرايته .

حدث هؤلاء عن كرب الكاظمي وضيق حافظ وهم المويلحي
تجدهم وأباء هم أقسى من قلب أبي إبراهيم على إبراهيم وفرعون
موسى على موسى وملك بابل على اليهود قبل وساطة أستير .
وحدثهم عن جمال ساق أو صوت قينة أو فتنة داعر أو ليونة وسيط
تلق قلوباً أرفق من قلب يعقوب على يوسف وأفئدة أشغل من فؤاد
قلب امرأة عمران قبل أن يمسي فارغاً باطمئنانها على ولدها .

ولسنا نعرض صورة صارخة الألوان مبالغه فى الحق أو رغبة
فى رفع نقاب قد رفعتة والله الحوادث من قديم وأزاحته يد الواقع
منذ أجيال ، ولكن لنحدد العلاقة بين الأدباء والعلماء وأهل الفنون
ورجال الحكمة وبين هؤلاء الذين يعاصرونهم . ومهما كانت أحوال
هؤلاء المنكوبين بذكائهم ومواهبهم وميولهم للعلم والأدب وإصلاح
المجتمع فى كثير من أقطار العالم ، فإن نصيبهم من البلاء والنكد
والضنك فى البلاد العربية عامة وفى مصر خاصة أسوأ من نصيب
كل من عداهم من أمثالهم فى العالم ، ومثلهم على حد قول فيكتور
هيجو الذى نقله حافظ الى العربية مثل البائس الذى يدب فى نفسه
اليأس دبيب العقم فى الأبدان والآجال فى الأعمار والغريق الذى
ظفر به البحر الهائج فلبث معلقاً فى خيط الأجل تحت شقى الفناء
يفتح له الوهم بين كل موجتين قبراً ويمد له الخوف بين كل قطرتين
بحراً ، يطفو به القدر ويرسب به القضاء فتلتقفه الموجة بعد الموجة
وتلتقمه اللجة بعد اللجة ، حنق عليه الماء والهواء وزهدت فى وجوده
الأرض والسماء وكلما هم بالاستسلام للموت أدركه الحرص على
البقاء فجعل يجالذ الأمواج ويصارع البحر حتى اذا نزع التعب
قواه طواه اليمّ فيما طواه طى سر الجرائم فى أفئدة

المجرمين .

هل هم مرضى أحوج الى علاج أنفسهم منهم الى معالجة الآداب والفنون والحكمة فى أقوام لا تفقه ولا تريد أن تفقه ؟ .
ألا تشريع يردع الناس عن التفكير فى خير الناس ؟ ألا قانون يحرم الاشتغال بما لا يقبل عليه الناس إلا بعد موت صاحبه وفوت أوانه ؟ ألا معهد علمى يدرس معقولية هؤلاء الأدباء والفصحاء والعلماء حتى اذا استبان خبالهم منعهم عن العبث بأعمارهم ونهاهم على الأقل عن جناية كجناية والد أبى العلاء ؟ إن قنطار كلمة وأدب لا يعدل رطلا من ذهب ودين شعر وفلسفة لا يعدل كاساً من شراب .

يفحص الموظف والجندي فحوصاً كاملة فى عافيته وسمعه وبصره وعقله وعلمه وسنه لأنه سيتقاضى دنائير معدودة من مال الدولة ، ولا يفحص العالم ولا الأديب ولا الشاعر لأنهم لن يمسوا مال الدولة ولكنهم قد يجنون على أنفسهم وعلى ذويهم فليكن شأنهم الى مايشاعون لا مايشاء العدل والنظام والرحمة ، أليست هذه حقيقة الواقع ومايقودنا اليه المنطق . لقد ضربوا مثلاً فى قوة سلطان العقل والخلق بشراذم حسن بن صباح التى كان يأمرها

أمام وفود أعدائه أن تلقى بنفسها من حالق فتطيع سراعاً تباعاً الى الهلاك كأن لا عقل لها ولا سمع ولا بصر ! وهؤلاء الأدباء والشعراء والحكماء الذين يلقون بأنفسهم فى مهالك الحياة أكثر تخديراً وانخداعاً ، ولئن ضحى الأولون بأنفسهم لغاية وهى إقناع الشاهدين بقدرة الشيخ على التأثير والتسخير والأمر غير مدافع ولا منازع ولا معارض ، فما غاية هؤلاء الجموع من أهل الأدب والفنون والحكمة يلقون بأنفسهم الى التهلكة ؟ أهم ضحايا بغير عقائد ، أم هى عقائد لا حقائق وراءها أم هى حقائق كالأخيلة ووقائع كالأوهام ؟ قال لى أحدهم : لقد عرضوا على الاتجار فثرت وحنقت فاختاروا أبله لا يفهم الكلام العادى فأبلى فى البيع والشراء حتى أصبح من ذوى الثراء ، وعرضوا على منصباً فى الحكومة فاستهنت به ولاذ به غرّاً فإذا هو اليوم فى أرقى المناصب وأضخمها راتباً وهو من أكثر الناس عيوباً ولكن رداء الوظيفة أضفى من ستور الأولياء المزيفة ، فقلت له ألم تسمع بما دعت أم الاسكندر لولدها ؟ قالت اللهم اجعله ذا حظ يستخدم به ذوى العقول ولا تجعله ذا عقل يستخدمه ذوى الحظوظ .

فافهم الناس هنا لا يطلبون العلم ولا ينشدون ضالة المؤمن ولا

يطربون للشعر ولا يؤمنون بالأدب ، الناس هنا عبياد شهواتهم
وأسرى ملذاتهم ، عقولهم أحراس على أبدانهم لاتحسن غير
تدبيرها ولا تؤمن إلا على إنمائها وتغذيتها وتضخيمها وتفخيمها
فما حاجتهم الى مايرقى الروح ، دونك ومايخدم الجسد يتهاغتون
عليك ويقدمون القرابين بين يديك ويسلمونك زمامهم وتمشي وأنت
تستثمرهم مقدمهم وإمامهم .

محمد لطفى جمعه

الفهرس

الصفحة

| | |
|-----|---|
| ١ | تقديم الاستاذ أحمد الطماوى |
| ٥ | (١) أدباء وشعراء قدامى ومحدثون |
| ٢٠ | (٢) من أسباب الفلاكة |
| ٤٢ | (٣) حالة معنوية |
| ٥١ | (٤) المحارفة والصحافة |
| ٥٩ | (٥) من أحوال الأدباء المفلوكين |
| ٧٤ | (٦) حكمة الجوع |
| ٧٧ | (٧) الشاعر العراقى عبد المحسن الكاظمى |
| ٩٥ | (٨) أصحاب المواهب العقلية |
| ١٠٧ | (٩) علاقة المعاصرين بالنوايغ |
| ١١٥ | الفهرس |

مؤلفات محمد لطفي جمعة

أولاً : المؤلفات المطبوعة :

- ١ - فى بيت الناس (قصص) - نقد . ١٩٠٤
- ٢ - فى وادى الهموم (رواية) - نقد . مطبعة النيل ١٩٠٥
- ٣ - تحرير مصر (سياسة - مترجم) - نقد مطبعة النيل ١٩٠٦
- ٤ - محاضرات فى تاريخ المبادئ الاقتصادية والنظم الأوروبية (اقتصاد ونظم الحكم) - نقد . مطبعة النيل ١٩١١
- ٥ - الحكمة الشرقية (يضم ثلاثة كتب هى : حكم فتاح حوتب وروضة الورد للشيرازى والتعليم الراقى للمرأة اليابانية) - ترجمة ودراسة - نقد . ١٩١٢
- ٦ - حكم نابليون (مترجم) - نقد مطبعة البيان ١٩١٢
- ٧ - ليالى الروح الحائر (أدب) - نقد مكتبة التأليف ١٩١٢
- ٨ - الأمير « ميكافلى » (ترجمة ودراسة) - نقد . مكتبة التأليف ١٩١٢
- ٩ - مقدمة قانون العقوبات ومبادئ العلوم الجنائية (قانون - مذكرات فى القانون الجنائى لطلاب السنة الثانية من قسم الحقوق بالجامعة المصرية) - نقد . ١٩١٧

- ١٠ - تاريخ علم الاجتماع (اجتماع) -
نقد . ١٩١٩
- ١١ - مائدة أفلاطون (دراسة فلسفية -
مترجم) - نقد . ١٩٢٠
- ١٢ - الشهاب الراصد (نقد كتاب « فى
الشعر الجاهلى » لطف حسين) -
نقد . ١٩٢٦ مطبعة
المقتطف والمقطم
- ١٣ - تاريخ فلسفة الإسلام (فلسفة
إسلامية) - نقد . مطبعة المعارف ١٩٢٧
- ١٤ - الشيخ محمد عبد السلام (سيرة
«نصوف مصرى») - نقد مطبعة حلیم ١٩٢٧
- ١٥ - حياة الشرق ودوله وشعبه وماضيه
وحاضره (سياسة وتاريخ) - نقد .
دار إحياء الكتب العربية ١٩٣٢
- ١٦ - سجل أشهر القضايا العالمية (قانون
- عدد واحد) - نقد . مطبعة حجازى ١٩٣٤
- ١٧ - بين الأسد الإفريقى والنمر الإيطالى
(سياسة - بحث تاريخى اجتماعى
فى المشكلة الحبشية - الإيطالية) -
نقد . مطبعة المعارف ١٩٣٥

سلسلة مسامرات الشعب (روايات

مترجمة) :

١٨ - الساحر الخالد - عدد ٤٠ مسامرات

الشعب - نقد

١٩ - الانتقام الهائل - عدد ٤١ مسامرات

الشعب - نقد

٢٠ - الكنز الدفين لكوثران نويل - عدد ٤٧

مسامرات الشعب - نقد

٢١ - الجسد والروح - عدد ٤٨ مسامرات

الشعب - نقد .

٢٢ - ثورة الإسلام وبطل الأنبياء أبو

القاسم محمد بن عبد الله (سيرة

الرسول ﷺ - الجزء الأول) - نقد . مطبعة الحلبي ١٩٤٠

٢٣ - ثورة الإسلام وبطل الأنبياء أبو

القاسم محمد بن عبد الله (الجزء

الأول مضاف إليه باقى الأجزاء

مطبعة النهضة المصرية ١٩٥٩

مكتبة عالم

٢٤ - نظرات عصرية فى القرآن الكريم

(تفسير) الكتب بالقاهرة ١٩٩١

٢٥ - مخطوطات مسرحيات محمد لطفى

جميعه - الجزء الأول - المسرحيات

- المؤاندة (قلب المرأة - خضّر أرضك
- فى سبيل الهوى - يتظّلة الضمير
- الأم المتعبة) - إصدار ودراسة
نقدية تحليلية للدكتور سيد على
إسماعيل الأستاذ بكلية الدراسات
العربية بجامعة المنيا .
- ١٩٩٧ القاهرة
مطبعة بادل
بالمنيا
الناشر مكتبة
زغراء الشرق
- ٢٦ - قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين
والأنداد - تراجم مصرية وأجنبية .
- ١٩٩٨ بالقاهرة
عالم الكتب
- ٢٧ - نحر أدب روائى عالمى جديد (عولس
لجيمس جويس - أدب ونقد)
- ١٩٩٨ عالم الكتب
- ٢٨ - مع الكتب فى سبيل المعرفة - تاريخ
تكوين عقل (أدب ونقد)
- ١٩٩٩ عالم الكتب
- ٢٩ - الفلاكة والبهيمية فى الأدب القديم
والحديث (أدب)
- ١٩٩٩ عالم الكتب
- ٣٠ - مباحث فى الفلوكلور (أدب ومأثورات
شعبية)
- ١٩٩٩ عالم الكتب

ثانيا : نحت الطبع :

- الأيام المبرورة فى البقاع المقدسة
(رحلة الحج والزيارة النبوية فى
عهد الملك عبد العزيز آل سعود) -
أدب رحلات .

- تذكّار الصبّا أو ذكرى ١٩ مارس
(جزآن - مذكرات وسيرة فى
الرحلة والسياسة والأدب والفنون) .
- شافع على العصر (مذكرات محمد
لطفى جمعه ١/٨/٦٢ - ١٩٥٣) .
- عايدة (رواية) .
- مختارة (رواية) .
- الفتى العادل (رواية)

| |
|--|
| <p>رقم الإيداع</p> <p>٩٨ / ١١٢٢٣١</p> |
| <p>I.S.B.N.</p> <p>977 - 232 - 152 - 1</p> |



مطبعة السلام الحديثة

٠ اش عبد السلام منسى
المتفرع من الشهيد أحمد حمدى
مذكور - فيصل
ت : ٥٨٣١٩٣٠

